احمد توفيق المدني

قرطاجنة في أربعة عصور

من عصر الحجارة إلى الفتح الإسلامي

المؤسسة الوطنية للكتاب ـــ الجزائر

احمد توفيق المدني

قرطاجنة في أربعة عصور

من عصر الحجارة إلى الفتح الإسلامي

المؤسسة الوطنية للكتاب
3 ، شارع زيروت يوسف
الجزائر

رقم النشر : 84/1759

كلمة للناشر

بين يديك يا سيدي القاريء اقدم هذا التاليف القيم الجليل . تأليف صديقي وصديقك - بل صديق الامة جمعاء - اخينا احمد توفيق المدني . من قدمته لك الايام الحافلة بثايات وطنيته صادقة . والمفعمة بثاثاره وحسناته . فلم تدع لي تلك الايام مجالا للحصول على شرف تقديمه اليك .

ولكنني عن ذلك اسلو بفخر ما آتيه اليوم من نشر كتابه هذا . كتاب يحدثك عن تاريخ ومجادة وطنك بما لم يحدثك به سواه . ولا غرو فمؤلفه البار قد اوقف كل ما أوتي من براعة قلم واصالة رأي على كل ما يرفع راس امته ويعلي شان بلاده . وكذلك يجب ان يكون العاملون !

حسين الجزيري

بسم الله الرحمن الرحيم

مستهـــل

أيها المغربي الماجد يا بن مازيغ وقحطان

ضع امامك رسم القارة الافريقية واجل رايد الطرف في انحائها . تر في شمالها الغربي قسـما عظيما قد ميزه موقعه الطبيعي عن بقيتها فاتخذ لنفسه منها موقع التاج من الهامة . ذلك هو بلاد المغرب . ذلك هو افريقيا الشمالية .

ان لبلادك هــذه لتاريخا زاهرا . يخترق العصور الى ما وراء الثلاثين قرنا ويجمع في صحفه المسطورة جم الحوادث الهائلة والاعمال الجسيمة . وينبئك انباء خبير . بانه قد عرفك المعرفة الصادقة ودرسك حق الدراسة قبل ان يعرف غيرك من الامم التي يملا اليوم ذكرها انحاء الأرض .

لكن مؤرخي العرب . ولست استثنى من بينهم الامام ابن خلدون . قد تهاونوا بامر ذلك التاريخ المجيد . فلم يذكروه في اسفارهم الا منذ حلت برحاب المغرب فرسان العرب الفاتحين . وبذلك اضاعوا لهذه البلاد عشرين قرنا من التاريخ لا يعرجون عليها الا استطراداً ولا يخصونها بادني عناية واهتمام .

واني ارى ان تلك القرون التي قد خلت قبل الفتح العربي . لحرية بكل بحث وجديرة بكل درس دقيق . فانها قرون ملئت عظمة وجلالا . وسطرت في سجل التاريخ صحفا

ذهبية بما فيها من مدنية زاهرة . وجهاد عظيم للحياة الهنية . ايامكان البربر . ابناء مازيغ الأباة . يقطنون سهول هذه الأرض وجبالها . ويقتبسون من كل قادم انوارمدنيته .

فتاريخ الشمال الافريقي يشمل برمته عصرين عظيمين : العصر الأول هو العصر البربري البحت . ويبتدىء منذ عرف التاريخ الى أن قدم العرب .

والعصر الثاني يبتديء منذ تصافح ابناء يعرب وابناء مازيغ . واصبح المغرب بلاداً اسلامية يقطنها عنصرمزيج من البربروالعرب .

فاما هذا العصر الثاني . فقد اعتنى به المورخون عناية تشكر . وافردواله كتباقيمة واسفارا جليلة .

واما العصر الأول . فذلك هو الذي رايت مؤرخي العرب قد تهاونوا به وتركوه . فعزمت على سد هذه الثلمة وصممت على تسطيرهذا التاريخ الذي بين يديك .

ولقد استخرجته من كتب المؤرخين الغربيين وهم الذين افردوا هذا العصر ببحث كبير وبذلوا في سبيله مجهوداً جسيماً . فاعادوا الحياة لذلك العصر الميت . واستحقوا من الامة المغربية ومن التاريخ العام كل شكروثناء .

ثم انك سترى اني اثناء هذا البحث . لم اقتصرعلى ذكر الوقائع وتاريخ حدوثها . لان هذا في نظري ليس هو التاريخ . انما التاريخ الحقيقي هوتجسيم العصر الماضي حتى يصبح كانه الحاضر المشاهد . وتصوير الحياة القديمة صورة حقيقية . وحشر عوامل نهضتها واسباب انحطاطها . وربط الحوادث باسبابها وبنتائجها . وتأثير هاتيك الحوادث على الوسط وعلى الآداب وعلى الاخلاق . ثم اصدار حكم عام على كل عصر من العصور . وما كان له من التاثيرعلى الحالة العامة في البلاد .

تلك هي الطريقة المثلى التي سلكتها في تركيب هذا الكتاب . وبذلت اقصى ما في استطاعتي لابلغ المثل الاعلى الذي وضعته نصب عيني عندما صح مني العزم على الشروع في هذا العمل .

ولست ادري هل انا بلغت غايتي . وحققت امنيتي . فليس يدرك هذه المسالة سواك ايها الصاحب حين تتلوهذا الكتاب . وتصدرحكمك عليه بنزاهة وانصاف .

اما انا فحسبي من هذا العمل . انني قمت بواجبي . وارضيت ضميري . وذلك هوشعاري في العمل . وتلك هي غايتي في الحياة .

المقـــدمـــة

كلمة عن وصف المغرب

اني لذاكر لك الساعة كلمة موجزة عن وصف هذا القسم الافريقي حتى تعلم الحالة الطبيعية للبلاد التي ستخرق من تاريخها قرونا عديدة .

حالة الارض ـ البحر الابيض المتوسط يكتنف بلاد المغرب شرقا وشمالا . والمحيط الاطلس يحدها غربا . اما من جهة الجنوب فان رمال الصحراء الكبرى تفصلها عن بقية افريقيا .

وجبال الاطلس تخترق هذه البلاد من اقصاها الغربي الى ادناها الشرقي . من البحر المحيط الى البحر المتوسط .

وهذا الأطلس العظيم ينقسم الى اقسام ثلاثة :

اولها : الاطلس الساحلي . ويشمل جبال الريف المراكشي . موطن الريفيين الابطال . وجبال الجرجرة بالجزائر او جبال زواوة . وهي الموطن البربري الخالص بالقطر الجزائري . وهذا القسم كثير الارتفاع . وتبلغ قمة لا لا خديجة بالجرجرة 2300 ميتر .

ثانيها : الاطلس التلي يبتدي بالمغرب الاقصى . وينتهي بجبال خمير بالمملكة التونسية ، وذروة طمجوت بالمغرب الأقصى يبلغ ارتفاعها 4500م أعلى جبال خمير 1450م .

ثالثها : الاطلس الصحراوي . ويبتدي كذلك بالمغرب الأقصى . ويخترق كامل الجزائر حيث يرتفع في جبال اوراس الى 2328م . وينتهي في المملكة التونسية بجبال زغوان .

ومن هذه الجبال ما تحجبه الغابات الكثيفة والاشجار الباسقة . ومنهماما لا نبت فيه ولا غابات .

وبين الأطلس التلي والبحر . توجد سهول عديدة . هي اهم البقاع الزراعية كسهول فاس بمراكش . وسهول سيدي بلعباس وتلمسان ومجرى الشلف بالجزائر . وسهول الساحل ومجرى المجردة بتونس .

واما الهضاب العليا فهي بين الاطلسين التلي والصحراوي . ويتراوح ارتفاع هاتيك الهضاب بين 700 و1100 ميتر .

الانهر – والانهر بالمغرب على ثلاثة انواع . فما كان يصب منها في المحيط الاطلسي فهو غزير المياه . حيث انه يتغذى بالامطار زمن الشتاء . وبسيلان ثلوج الاطلس إبان المصيف . كنهرام الربيعة ونهر السبوع .

وما جرى من تلك الانهر نحو بحر الروم كان قليل المياه . ولقد يجف اكثرها تماما زمن الحر . لان الاطلس لا يرتفع مثل ارتفاعه بالمغرب الاقصى . ولا تكثر به الثلوج ولا تتهاطل عليه الامطار الغزيرة . واكبر هذه الانهر . وان شئت قلت الاودية وادي الملوية بمراكش . ووادي الشلف بالجزائر . ووادي مجردة بتونس .

وهنالك اودية اخرى، لا تسمح بمياهها ان تندمج في مياه البحر . فهي اودية تتمتع باستقلالها التام : تنبع في دواخل البلاد ، وتجري على سطح الارض قليلا . ثم تختفي في الرمال .

وتوجد حذو الصحراء سباخ او بحيرات كثيرة . كلها ملح اجاج . اهمها شط الجريد بالمملكة التونسية .

الطقس – وكذلك يمكننا ان نقسم الطقس في المغرب الى ثلاثة اقسام : فجهات الشمال الغربي . تهب عليها نسمات المحيط . والامطار تتهاطل عليها غزيرة . ولذلك كان طقسها جيدا معتدلا . وكانت من اهم البقاع الفلاحية .

وساحلا الجزائر وتونس . يمتازان بلين شتائهما ووفرة امطاره بغير انتظام . وبقيظ صيفهما وشدة يبوسته . وانها لجهة فلاحية ذات اهمية كبيرة . تساعد اشجار الزيتون على النمو والانتشار . ولولا عدم انتظام المطر لكانت اجمل جهة فلاحية .

أما الهضاب العليا . فصيفها سعير . وشتاؤها زمهرير . ولم يستطع أي نبات ان ينمو بتلك الارض سوى الحلفة .

الحالة الحاضرة : مساحة المغرب تبلغ 800 000 كيلو ميتر . بدون توابعه من الصحراء . ويجاوز سكانه 17 مليونا . منهم نحو مليون من الاجانب . فرنسويين وايطاليين واسبانيين ــ وكامل البقية من البربر والعرب .

ولقد قسم المغرب سياسيا الى ثلاثة اقسام ايضا .

اولها : المملكة التونسية . وسكانها 2200 000 وهي دولة مستقلة دخلت تحت الحماية الفرنسوية في 12 «ماي عام 1881»، عاصمتها مدينة تونس ولقد اشتهرت المملكة بالزراعة على انواعها واهمها الحبوب في ناحية الشمال والكروم ثم الزياتين بالجهة الشرقية . وتبلغ اليوم اكثر من 13 مليونا . والنخيل بالجهة الجنوبية والمعادن والمناجم كثيرة بها . اهمها السماد (الفوسفات) ثم الحديد والزنك والرصاص . اما الفحم الحجري ، فلم يوجد بها ، لذلك لم يمكن انشاء صناعة كبيرة ومعامل جسيمة ، انما الصناعات الوطنية باقية وزاهرة : عصر الزيت ، ونسج الزرابي ، وعمل الصابون . ونسج الاقمشة الصوفية . والحرير . والعطورات المختلفة .

وثانيها : البلاد الجزائرية ، وهي مستعمرة فرنسوية ، جملة سكانها 5 ملايين ونصف ، عاصمتها مدينة الجزائر ومزروعاتها ومعادنها كالمملكة التونسية .

وثالثها : سلطنة المغرب الأقصى . وقد دخلت تحت الحماية الفرنسوية عام 1912 «وسلم شمالها للحماية الاسبانية وهو بلاد الريف . تبلغ جملة سكان المغرب 9 ملايين منهم نحو 5 داخلون في منطقة الحماية . عاصمة السلطنة مدينة فاس «ومدينة الرباط فعلا» وحالتها الفلاحية احسن من اختيها . وكذلك معادنها . اما صناعتها وان كانت قليلة فقد اشتهرت بالاتقان وسلامة الذوق .

ولا ازيدك كلمة عن وصف المغرب ، خشية الخروج عن الموضوع .

سكان المغرب الاصليون
العنصر البربري

انما العنصر الاصلي الذي عرفه التاريخ عندما عرف بلاد المغرب هو العنصر البربري . وانه لعنصر ذو خلال فاضلة وسجايا كريمة ، قد امتاز على غيره من الشعوب بكثير من الخصال النادرة : اهمها المحافظة التامة على كيانة والتصلب في الدفاع عن استقلاله ، وعدم الاندماج ابدا مع أي عنصر من العناصر الاخرى .

واننا . نظرا لاهمية هذا العنصر . سواء في العصر الحاضر او العصر القديم . ولاننا سنلاقيه دائما ابدا مهما درسنا صفحة من صحائف التاريخ المغربي . سنخصه بالعناية اثناء بحثنا هذا . وندرسه درسا مدققا وان يكن موجزا .

انواع البربر .

البربر الموجودون بالمغرب ينقسمون من حيث الخلقة الى انواع :

النوع الأول : البربر الشقر . وليس عددهم بكثير في البلاد . ولقد حامت الظنون حول اصلهم . فمن قائل انهم من بقايا الوندال ومن زاعم انهم من ذرية الجنود الغاليين الذين استخدمتهم قرطاجنة . لكن اغلب الباحثين يفند هذه المزاعم تفنيدا . ومن بينهم الاستاذ استفان قزال . وهوسيد الباحثين في هذا الموضوع . فقد

قال في كتابه : «من العبث ان نبحث في الاقوال التي تدعي بان هؤلاء الشقرهم من سلالة الوندال او من بقايا جنود الغال الذين استخدمتهم قرطاجنة ورومة . ذلك لاننا نتيقن ان الوندال قد اضمحلوا تقريبا من البلاد اثر انكسارهم . اما الغال الذين استخدمتهم قرطاجنة ورومة فلم يكن عددهم كبيرا . ولم ينسلوا في البلاد . ولم يثبت ان هؤلاء الغاليين كانوا من الشقر . والذي ارى ان انتشار هذا النوع الاشقر يدلنا على امكان وجوده وانتشاره في البلاد منذ ازمنة عتيقة»

وكانت نتيجة البحث التي استقر عليها راي الاغلبية من المؤرخين هي ان هذا العنصر هو من بقايا الرجل الذي قطن بلاد المغرب قبل عصور التاريخ .

النوع الثاني : وهو الاكثر انتشارا : طويل القامة . يبلغ غالبا 70» 1م . دماغه مستطيل وجبهته مسطحة . ووجهه لوزي الشكل وخداه لا يكادان يظهران . ولحيته خفيفة وانفه رقيق مستطيل . كتفاه عريضان وصدره واسع في اعلاه وضيق في اسفله .

ويقول م . كولينيون ان هذا النوع كثير الانتشار بالجزائر ويقرب النصف من سكان المملكة التونسية .

النوع الثالث : متوسط القامة لا يجاوز 63» 1م . دماغه مستطيل . ووجهه قصير وعريض . وله خدان بارزان . وانف عريض له احتداب قليل . وله لحية كثيفة . وصدر عريض وفم واسع وشفاه غليظة . ويوجد هذا النوع بجبال خمير وعلى ضفاف مجرده وفي نواحي قابس وحوالي الجزائر وفي اقصى جنوبها . وهذا النوع قديم جدا . ربما يصل مع النوع الاشقر الى عصر الحجارة .

النوع الرابع : متوسط القامة كذلك . يبلغ 65» 1م . مستدير الراس . وجهه قصير وعريض وجبهته مقوسة . وانفه قصير وغليظ وفمه واسع وشفتاه غليظتان . وذقنه مستدير . وينتشر هذا النوع في جزيرة جربة وجبال الجنوب التونسي وطرابلس وجبال القبائل أو الجرجرة وجبال لوراس .

وجميع هذه الاقسام الثلاثة الاخيرة سمر اللون سود الشعور . سود الاعين كذلك في الغالب .

اصل البربر :

علمنا ان البربري الاشقر هو من بقايا الرجل الحجرى . وان النوع الثالث يقاربه في القدم . فمن اين قدمت الانواع البربرية الاخرى . ومتى حلت ببلاد افريقيا ؟

هنا افترق الباحثون طرائق قدداً . فمنهم من حاول اثبات قدومهم من جنوب اروبا . ايام كانت الجيولوجية تصل بين جنوب اروبا وشمال المغرب . انما لم يستطع هؤلاء اثبات زعمهم . وهو ليس من الحقيقة في شيء .

والاستاذ قزال يقول : ان ثبت ان هنالك شبها بين البربرويين بعض سكان جنوب اروبا . فمن يستطيع أن يبين لنا . هل ان سكان ذلك الجنوب هم الذين قدموا لافريقيا . او ان البربر هم الذين ذهبوا لاروبا والقوا فيها تلك الاقوام ؟

ويقول ابن خلدون ان البربر قدموا من آسيا منذ ازمنة متناهية في القدم . وانهم ليسوا من ولد ابراهيم ولا من ابناء جالوت والعماليق ولا من حمير . وفند في مقدمته دعوى قدوم الملك افريقش واطلاقه اسم البربر على سكان البلاد . ثم يقول ان هؤلاء البربر هم من ابناء **كنعان ابن حام بن نوح** قدموا من شمال جزيرة العرب . وان جدهم الأعلى يدعي مازيغ ولا يزال البربر يسمون انفسهم الامازيغ .

والجنرال دوماس احد اكابر الباحثين يصادق على هذا القول ويثبت ان اصل البربر من **بني كنعان** .

ويقول العلماء الحاليون ان الشبه عظيم بين البربر وبين سكان الصعيد المصري .

وزيادة على هذا الشبه الخلقي يوجد شبه آخر يدعو الى شديد الاهتمام . وهو شبه اللغة واشتقاقها وقواعدها .

فانت اذا بحثت ترى ان لغة البربر في قواعدها ليست متفقة في أي حال من الاحوال مع لغة الاسبان أو الايطاليين أو اليونان . أو غيرهم من الأمم الاروبية لكنك اذا درست لغة النوبيين المصريين ولغة الحبشة . وما جاورهما من الاقوام الاخرى . وقارنت بين ذلك وبين اللغة البربرية . رأيت أن وجه الشبه بين لا ريب فيه .



الكبش البربري بالزناقة
عمون ر . ع بمصر

ويقول قزال «انه ثبت اليوم وجود لغة ذات اصل واحد تدعى اللغة الحامية (Chamitque) منتشرة بكامل شمال افريقيا الشرقي والغربي . تبتدي من المحيط الهندي في جنوب الحبشة . وتنتهي في بداية السنقال . لكن البحث عن اصل هذه اللغة العتيقة لا يوصل الى أي نتيجة . »

ولهذا يمكننا ان نستنتج ان البربر قدموا من جهة الشرق . ويمكننا ان نوفق بين المؤرخين العرب وبين النظريات الحديثة المدعمة بالحجج . فنقول انهم من العنصر السامي . وانهم قدموا من آسيا . واستوطنوا مصر قبل هذا القدوم زمنا ما . فاخذوا عن قدماء المصريين بعض العوائد واللغة . ولعل جماهير من الفلاحين المصريين قدموا معهم .

ولكي تقتنع بهذا . اضع بين يديك رسمين شديدي التشابه : اولهما من صنع قدماء البربر وهو يمثل كبشا منحوتا في الجبل اكتشف في الزناقة (جنوب الجزائر في منتصف الطريق بين محطة بني سويف وواحة الفقيق) وثانيهما هو من صنع قدماء المصريين يمثل الاله عمون رع منقوشا على جدار هيكل الكرنك بمصر عمون رع . بمصر

وانت تدرك بمجرد نظرك الى الرسمين ان وجه الكبش ووجه عمون رع واحد وان الذي نقش الكبش اما ان يكون بنفسه من صعيد مصر .واما ان يكون قد عاشر اقوام مصر زمنا طويلا واخذ فنهم وبعض ثقافتهم . واذا اردنا ان نلخص هذه المسائل ونستخلص منها نتيجة قارة . امكننا ان نقول :

اولا ـ ان السكان البربر قدموا من جهة الشرق منذ ازمنة عتيقة جدا .

ثانيا ـ انهم عرفوا منذ ابتداء التاريخ بانهم عنصر مستقل له عوائده واخلاقه ولغته

شيء من عوائد البربر :

امتاز البربر منذ اقدم العصور باستماتتهم في سبيل الحرية . وتعشقهم للاستقلال . فكانوا لا يرضخون ابدا لغالب ولا يجنحون الى الاستكانة .ولئن

خضعوا زمنا تحت سلطان القوة فلقد كانوا ـ كلما بدت لهم فرصة سانحة ، ينقضون على اعدائهم .

ولهم ولع شديد واقتدار غريب على الاحتفاظ بعوائدهم واخلاقهم ولغتهم فانت تراهم الان في جبال الجرجرة مثلا . وقد عاشوا نحو ثلاثة آلاف عام تحت احتلال الامم المختلفة المتباينة . لا يزالون محافظين على كل مميزاتهم الذاتية . حتى احكامهم الخاصة .

اما لباسهم فلم يزل كما كان عليه منذ القدم : برنس من الصوف او من الوبر تحته ثياب خفاقة .

وكان لهم اعتناء شديد بتربية المواشي . والخيل المعدة للحروب . ويهتمون بامور الزراعة في بعض الجهات .

اما مساكنهم فاكواخ من الخوص واغصان الشجر . او خيام نسجت من الشعر والوبر . اومنازل بسيطة من الطين والحجر .

وكانوا يعيشون متفرقين . كل قبيلة تخضع لاميرها . والحرب بين القبائل والغارات لا تخبو نارها . .

وهم في الغالب اصحاب جد في العمل . ولهم اقتدار كبير على تحمل الاتعاب وشظف العيش . يكرمون الضيف . ويحمون اللاجيء اليهم . اما اهم القبائل البربرية فهي :

هوارة . امتاهة . ضرية . مغيلة . ورجومة . ولطية . مطماطة . صنهاجة . نفزة . كتامة . لواتة ، مزاتة . ربوحة . نفوسة . لمطة . صدينة مصمودة . غمارة . مكناسة قالبة . وارية . كومية . سخير . امكنة . ضرزيانة . قطاطة . جبير . يراتن . زواوة . لواطة . برغواطة . واركلان . كزولة .

حالة البلاد قبل التاريخ

هنالك عصر يدعوه الباحثون عصر «ما قبل التاريخ» la prihistoire وهو يشمل وصف البلاد وسكانها قبل الوقائع التاريخية المعروفة . معتمدين في

ابحاثهم تلك على ما ابقاه الاقدمون من آثار عتيقة وحجارة منقوشة وادوات الحجر والحديد . ومن البلاد ما ابقى قدماؤها آثارا كبيرة فامكن للباحثين ان يستخرجوا وصف ما قبل تاريخه مبينا . ومنها ما لم يقع العثور فيه على شيء كبير . فلم يتسن لهم ان يطنبوا في بيان ذلك . وبلاد المغرب من هذا القسم الاخير .

على انا سنلقى نظرة لابد منها على حالته فيما قبل التاريخ . مهما كانت تلك النظرة سطحية . ومهما كانت المعلومات عن ذلك العصر غير كافية . .

ما هي الآثار الباقية ؟ اهم ما وجد من آثار ذلك العصر بعض الحجارة المنقوشة وادوات الحديد . وخصوصا بعض صور منقوشة على الصخور . وهذه الصور على قسمين : اولها وهو العتيق يمثل صور رجال وحيوانات فقد اغلبها من البلاد في العصور التاريخية . وصور ادوات وآلات وبعض مناظر . وتمتاز هذه الصور بعمق حفرها . وغلظته . وثانيها وهو احدث عهداً من الاولى يمتاز بدقة حفره ورقته لكن تصويره اقل قيمة من الاول . وهو يمثل بعض حيوانات لا تزال موجودة وبعض احرف هجائية .

ولعدم وجودنا الآثار الصالحة لبقايا هذا العصر بالمغرب نستنتج ان مدينة العصر الحجري كانت بهذه البلاد احط منها بكثير في البلاد الاخرى .

كان رجال هذا العصر الحجرى . ولعلهم هم البربر الشقر الذين سلف عليهم الكلام ـ كانوا يسكنون الكهوف والمغاور . وبها يدفنون . وتثنى عند الدفن ارجلهم . والمظنون ان نظام العائلة قد دخل بلاد البربر نحو خمسة قرون قبل المسيح ابعد انتصاب الجاليات الفنيقية بمراكز الساحل المغربي، وللاب السلطة المطلقة في العائلة .

وكانت هذه الجموع الأولية تعتقد في السحر ولها اعمال كهنوتية سحرية تقوم بها . وكانت تعتقد ان الافعى والقردة والكبش ذي القرون الكبيرة تعتقد انها حيوانات مقدسة .

اما طعامها فكانت تاكل لحوم الوحوش ونخاعها وحشرات البر والبحر واثمار الاشجار وبعض الجذور والاعشاب .

ولم يكن الطقس في هاتيك العصور يخالف مخالفة محسوسة حالة الطقس

اليوم . انما كان يمتاز على الطقس الحاضر بكثرة الرطوبة . ولقد كانت البلاد ذات غابات واحراج هائلة . وقع تحطيمها شيئا فشيئا . سواء بداعي الضرورة الفلاحية اوبداعي الحروب اوغير ذلك .

وكانت الحيوانات الكبيرة كالفيلة ووحيد القرن والنعامة وغيرها موجودة بهذه البلاد الا انها فقدت منها شيئا فشيئا . وكذلك كانت الحيوانات الكاسرة كالاسود والنمرة والببر تفتك بالانسان والماشية فتكا ذريعا . اما البقر والغنم والمعز والحمير فالمظنون انها قدمت من مصر .

وكانت تربية المواشي هي الثروة الوحيدة لأولئك السكان الاقدمين . لكن الاعمال الزراعية لم تكن مفقودة بالمرة . والفول معروف في البلاد منذ اقدم العصور ولعله اقدم نبات غذائي استعمل بها ولم يات من الخارج . وكذلك عرف القمح بها في عصر الحجارة والزياتين والكروم الوحشية . ومعلومات هؤلاء القوم الزراعية وردت لهم من مصر ايضا .

ونظن ان البربر عند قدومهم من المشرق لهذه البلاد هم الذين اتوا بكل ما ورد من مصر سواء من الحيوانات اومن المعلومات الابتدائية .

هذه خلاصة المعلومات عن المغرب فيما قبل التاريخ . وكل ما قبل التاريخ بالمغرب ينقسم الى عصرين : الأول عصر الحجارة المنقوشة وهو الاقدم والثاني عصر ادوات الحديد وهواحدث منه . اما المدنيات خلال هذين العصرين فهي اربعة.

1 ـ مدنية الحجارة المنقوشة الأولى ومن بقاياها بعض عظام ونصول من الحجر المنقوش وفؤوس . وكان رجالها يعيشون على حالة الطبيعة ويسكنون تحت السماء .

2 ـ مدنية الحجارة المنقوشة الثانية وابقت اصداف الحلزون وبيض النعام واسنة من الصوان . وعظام بعض الحيوانات استعملت آلة . وبعض صور حمراء . وبعض حلي من بيض النعام .

3 ـ مدنية الكهوف : وفيها استعملت ادوات الفخار . ونحتت المغاور للسكنى . واستعملت جلود الحيوانات وعرفت الحبوب في هذا العصر . وتحسنت فيه حالة الحلي المصنوع من بيض النعام .

4 ـ عصر حضارة الحديد . وابقت صوراً تمثل اللباس والسلاح . ثم جاءت عصور التاريخ .

الكتاب الأول
دولة قرطاجنــة

كلمة عن الفنيقيين .

كانت دولة فنيقيا . وهي احدى دول المدنية العالمية منتصبة في الساحل الشرقي من البحر الأبيض المتوسط . محتلة شريطا طويلا من الأرض ، تكتنفه جبال لبنان الخضراء . وامواج المتوسط الزرقاء .

ولقد ظهر الفنيقيون بتلك الأرض وعرفوا بها منذ ثلاثة آلاف عام قبل ميلاد المسيح . ولقد كان المؤرخون يقولون ان اصل هؤلاء القوم مجهول الا ان الابحاث الجديدة ايدت ببرهان قاطع ان الفنيقيين هم من ابناء كنعان وانهم يمتون الى العرب بنسب قريب .

واذا كنت تذكر ما اسلفناه من قول ابن خلدون في كتابه ان البربر ينتسبون الى بني كنعان . تايد لك أن الفينيقيين والبربر انما هما من عنصر واحد وابناء ارومة واحدة . وهذا الاستنتاج لم يذكره التاريخ قبل اليوم .

ولقد نظم الفنيقيون دولتهم بصفة حكومة اتحادية ، ولكل مدينة من مدنهم ملك خاص والجميع يخضعون المجلس عمومي واحد يجتمع في العاصمة صور .

وكان شغلهم الوحيد وهمهم الاكبر في الحياة هو اكتساب الثروة وجمع الاموال الكبيرة والمقتنيات الثمينة بواسطة التجارة . فكانوا اول من اصطنع السفن وسافر بحراً . وما هو الا امد يسير حتى اصبحوا سادة العالم في البحر . وصارت غوار بهم تخترق عباب الخضم وتستعمر المرافي وتنشيء المستودعات التجارية . وتبث مبادي المدنية في هاتيك الانحاء . ومن هذه المستودعات العظيمة : تونس وسوسة وبنزرت واوتيكة (تحريف كلمة عتيقة) وذلك عام 1000 قبل المسيح (1) وجيجل وبجاية ، وتنس ، وطنجة . الخ .

ولا زالوا يسيرون على ذلك المنوال حتى وصلوا الى بلاد الهند والى جزائر الانكليز . وهذا يدلك على ما كان لهم من الجد والنشاط وحب الاسفار وتقحم الاخطار . في سبيل الارباح . ففنيقيا هي انكلتيرة العصر القديم .

وكانت الصناعة الفنيقية على غاية الاتقان والابداع وسلامة الذوق . وفيها المنسوجات وفيها الحلي وفيها التحف الثمينة . واواني البلور . وهم الذين اخترعوه .

وحسبهم فضلا على المدنية انهم هم الذين اخترعوا الاحرف الهجائية الصوتية تسهيلا لمعاملاتهم التجارية . وعنهم اخذها الرومان واليونان ثم انتقلت الى العالم جميعاً . وهي شبيهة بالاحرف العبرانية الحالية . اما لغتهم فهي بين العبرانية والعربية وهي الى هذه اقرب .

وكانوا يعبدون الاوثان . والاههم الاكبر يدعى بعل . وهو الشمس . وله تمثال هائل باسط ذراعيه . فاذا ارادو التقرب له واسترضاءه اوقدوا فيه ناراً حتى تحمر يداه الحديديتان ثم يضعون اولادهم عليها .... فيموتون بين يدي الاله ويستشفعون لهم .

وتضحية الاولاد حسبما يثبته الدكتور كونتو من اقدم عادات الكنعانيين . وكان الفنيقيون اذا ابتنوا دارا جديدة وضعوا في اساسها صبيا صغيرا . ويقيمون على

---

(1) في هذه السنة اتم النبيء سليمان بناء الهيكل الشهير لليهود ببيت المقدس . وقد مر عليهم 480 عاما بعد خروجهم من مصر وهم بدون جامع ديني . وكان بناء هذا الهيكل بيذخ عظيم وفيه ابدع النقوش . وتم بعد عمل سبع سنوات متواصلة .

جثته اللينة بناءهم . اما اذا داهمهم خطر فلا مفر لهم منه حسب اعتقادهم الا بتضحية اولادهم بين يدي بعل .

ومن عاداتهم الكبر والفخر واحتقار الغريب .

قرطاجنـــة

في سنة 480 ق م . (1) وفدت الاميرة عليشة (2) من مدينة صور . تحفها حاشية من اشراف الفنيقيين وكبرائهم . فارة من مظالم اخيها الملك بيغماليون الذي قتل زوجها الملك اسرباس . فحطت اثقالها قرب مدينة تونس . واعانها جمهور من النزلاء الفنيقيين الذين وفدوا قبلها للبلاد . فاشترت من الملك البربري المجاور ساحة عظيمة من الأرض (3) . واخذ الوافدون يبنون لهم قرية هنا لك دعوها قرته حدشت ومعناه القرية الحديثة .

---

(1) قبل هذا التاريخ بثلاثة اعوام . مات التبع شمر يرعش . وهو اعظم ملوك العرب باليمن . تولى عام 800 ق م . وجند نحو ثلاثماية الف عربي وسار بهم قاصدا فتح بلاد الشرق جميعا وادخالها تحت حكم العرب . فاحتل العراق ودوخ فارس وخرب مدينة السغد فدعيت شمر قند اي : شمر احرقها . وقد وجد في بعض خرائبها عمود نقش عليه بالحميرية : هذا ما بناه شمر يرعش لسيدة الشمس . ثم قصد بلاد الصين . فتوجس امبراطورها شر من حرب العرب . وكان وزيره وطنيا مخلصا ومديرا حكيما . فقال له طب نفسا فانا افدي المملكة بنفسي واقيك شر الحرب . ثم جدع انفه وهشم وجهه وسار حتى مثل بين يدي الملك العربي قائلا . اتيتك طالبا منك الانتقام من السلطان فقد فعل لي ما ترى بدون موجب . فقال له انا أكفيك الانتقام منه فدلنا على اقرب طريق للوصول اليه . فاخذ الوزير يقودهم وسط مفاوز لا ماء بها ولا مرعى . وطال بهم الامر حتى اعياهم الجهد ولم يجدوا ماء فماتوا جوعا وظما ومات الوزير معهم كذلك . وكانوا على بعد ستة مراحل من العاصمة .

(2) ولعل هذه الكلمة تحريف «عائشة» وتدعى هذه الاميرة ايضا : ديدو وهو اسم عبراني لايزال يطلق الى الان ومعناه باللغة الفينقية : اللاجئة .

(3) يقولون في التاريخ القديم ان الأميرة طلبت من الملك البربري ان يبيعها بقعة من الارض تسع جلد ثور . فقال الملك وجماعته لنسلم اليها هذه القطعة ولنعلم بعد ذلك ماهي فاعلة بها . وهذه البقعة لا تكفيها لنصب خيمة فلما تم عقد البيع . اخذت جلد ثور كبير . وقطعته شريطا رقيقا مستطيلا جدا ثم دعت الملك وجماعتها وادارت ذلك الشريط حول المركز الذي عزمت على تخطيطه . فكان مساحة كبيرة . ولم يسع الملك وجماعته الا قبول ذلك الطلب . ولا شك انه قد اعجب في نفسه بهذه الحيلة اللطيفة . غير قارىء لعواقبها اي حساب .

وكان مركز هذه القرية على غاية من المناعة . وفي احسن موقع بالخليج التونسي . فاخذ الفنيقيون الذين استوطنوا المغرب يفدون نحوها . وكذلك جاءها قادمون آخرون من البلاد الفنيقية . فضاقت القرية بسكانها . وعزم هؤلاء على التوسع في داخل البلاد .

لكن ايار باس ملك البلاد البربري لم يرق لديه هذا العزم . فعارض اهل القرية في التوسع . ونشبت بين الفريقين حرب لم يذكر لنا التاريخ ادنى تفصيل عنها . انما نحن نعلم ان قرطاجنة مكثت مدة تدفع جزية لملوك البربر مجاوريها .

وما لبثت قرطاجنة ان توسعت واصبحت مدينة عظيمة . وان هو الا امد يسير . واذا بها اعظم مدينة بالمغرب .

فلنبحث قليلا عن اسباب هذا النمو السريع . ولماذا لم تنم قبلها احدى المدن القديمة الفنيقية الاخرى . مثل عتيقة ؟

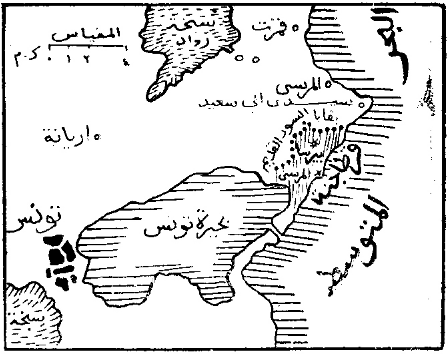
السبب الأول لنمو قرطاجنة السريع هو وجود فئة كبيرة من اعاظم الفنيقيين بها . ممن قدموا مع عليشة وممن التحق بهم . بينما كانت المدن الاخرى لا تحتوى الا على ثلة من صغار البحارين .

الثاني : حسن موقعها التجاري وصناعتها الحربية .

الثالث : ضعف مدينة صور وارتباك ادارتها . وعجزها عن مواصلة مستعمراتها . فشعر سكان هذه المستودعات المغربية بوجوب اتخاد مركز آخر قوي يقوم مقام المركز السالف . وكان هذا المركز هو قرطاجنة طبعاً . لما اسلفناه .

ولقد كان اليونانيون يقومون في الساحل الشمالي الغربي بالمتوسط بنفس العمل الذي يقوم به الفنيقيون بذلك الساحل الجنوبي . وبعد مدة اصطدم الفريقان المستعمران بجزيرة صقلية . ووقعت اول حرب قرطاجنية يونانية كان النصر فيها لقرطاجنة .

فاشتد ساعدها وقوى امرها . وخضعت اليها طوعا اوكرها جميع المدن الساحلية الفنيقية . وتوسعت حول هاتيك المدن في دواخل البلاد . فاصبح ملكها على السواحل يمتد عام 480 ق م من طرابلس الى بوغاز جبل طارق . وعندئذ بترت كل علائقها



خارطة قرطاجنة

مع صور . بعدما كانت تعترف بسيادتها . وترسل كل سنة وفدا للعاصمة الفنيقية يحمل لها نحو عشر مداخيل البلاد الجديدة ويقدم الضحايا الى هيكل ملك الأرض. ولقد قطعت قرطاجنة صلاتها بفنيقيا في الوقت الذي تدهورت فيه تلك الجمهورية الآسوية وسقطت فيه مدينة صور تحت ضربات بختنصر الفاتح الكلداني (604 ـ 561) واستقلت بالمغرب استقلالا تاما . وارسلت رجال البحر من ابنائها يختطون لها المرافيء الجديدة . فانشأوا طبرقة . وبجاية . وتنس وشرشال وطانجة . وسلا ورباط الفتح.

ثم مخرت اساطيلها البحر فاستعمرت سردينيا وكورسكا وعدة بقاع من جنوب فرنسا .

وكانت دولة الرومان في بداية نشاتها . فارتبطت معها بمعاهدة ذكر نصها المؤرخ بوليب في كتابه [1] .

حرب صقلية

عزمت قرطاجنة عزما اكيدا على التوسع الاستعماري . والرسوخ في سائر سواحل الحوض الغربي بالبحر المتوسط . انما كان يكدرها بقاء جزيرة صقلية الضخمة خارجة عن احكامها . لان تلك الجزيرة بقيت تحت تصرف اليونانيين مزاحميها واضدادها .

في تلك الاثناء اشتعلت نار الحرب بين الفرس واليونان . وحمي وطيسها . فرات قرطاجنة ان الفرصة سنحة لتحقيق مطامعها . فآزرت جانب الفرس على اليونان. وبعد وقائع طويلة . تمكنت من احتلال قسم كبير من هاتيك الجزيرة . على يد القائد مالكوس [2] سنة 550 ـ لكنك سترى ان هذا الاحتلال عاد على قرطاجنة بالوبال . وانه سيكون سبب اضمحلالها .

---

(1) بوليب مؤرخ روماني شهير ولد حوالي210 ق م . ومات عام 125 ولم يبق من تاريخه لهذا غير خمسة اجزاء . وهو من ابدع مؤلفات الاقدمين .

(2) بعدما انتصر بصقلية قهر بسردينيا فحكمت عليه قرطاجة بالنفي . لكنه ثار ضد هذا الحكم واستولى عليها واصبح من اكبر ملوكها واحسنهم سياسة وخلفه من ذريته رجال رفعوا شان الامة .



1 ــ 2 ــ 3 ــ نقود ضربت باسم قرطاجنة في صقلية .

4 ــ 5 ــ 6 ــ 7 ــ نقود دولة قرطاجنة على بعضها مكتوب «بسيرسا» وعلى أخرى «قرت حوشت» .

ولقد تمكن احد رجال الطبقة السفلى بصقلية من تسنم ذروة الملك بها واعانه على ذلك قائد القرطاجنيين عملكرص . (هملقار) . ليكون له عونا على خصوم قرطاجنة ومؤيد النفوذها بالجزرة .

لكن هذا الملك . ويدعى اكاتوكل . احب الاستقلال في كامل الجزيرة وصبا الى استرجاع ما تحتله قرطاجنه منها . فلما مات هملقار . بادر الملك باعلان الحرب على القرطاجيين وهاجم جموعهم بالقسم الذي يحتلونه . لكنه خاب بعد ملاقات عديدة . وانهزم منهوك القوى الى مدينة سرقوسة . فاحسن التحصن بها ثم تعاقد مع بيرهوس ملك الابير ببلاد اليونان وزوجة ابنته . وبعدئذ قام بعمل حربي يدل على مغامرة غريبة وجراة نادرة . ذلك انه بث في المعسكر القرطاجني اخبارا زائفة عن نياته الحربية . جعلت القرطاجنيين يحولون اسطولهم عن سرقوسة . ولما خلا له البحر ركب اسطوله صحبة نخبة من جنده . واشرع نحو افريقيا . يحمل الحرب الى نفس الأرض القرطاجنية . وعبثا حاول الاسطول القرطاجني اقتفاء آثاره . حيث انه تمكن بعد ستة ايام من الرسو على الرأس الكبير . واسرع بجنده نحو قرطاجنة .

وما اشد روع هذه عندما سمعت نبأ هذه الحملة الجريئة . فاسرعت بتعبية جيش وارساله ضده . لكن جندها انكسر انكسارا . واستمر تقدم اكاتوكل . حتى خيم على مدينة قرطاجنة محاصرا . واحتل تونس وارتيكة وبنزرت . لكنه لم يتمكن من استثمار انتصاره . حيث ان حوادث جزيرته اضطرته الى الركوب اليها تاركا ابناءه تحت جدران قرطاجنة . ولما بلغ الخبر رجالها اسرعوا بالكره على الصقليين فحاصروهم بتونس حصارا شديدا . واسرع اكاتوكل الى نجدة ابنائه فلم يستطع ان يمدهم بشيء وارتد خائبا . فثار الجند المحصور بتونس على ابنائه وقتلوهم . ثم استسلموا لاسر القرطاجنيين .

وهكذا نجت القرية الحديثة من الخطر بعد ما وصلت قيد انملة من الموت . واثر انتصارها هذا في قلوب الذين كانوا يريدون موتها . فاقتنعوا بقوتها ومناعتها . وبلغت اذاك اوج رفعتها . واكبر انتشارها . واصبحت مالكة في مرساها زمام التجارة العالمية .

(* المملكة القرطاجنية *)

كيف توسعت قرطاجنة واين امتد سلطانها ؟ هذا سؤال طبيعي يجب ان نبحث عنه قليلا .

ثبت ان القرطاجنيين لم يتوسعوا في الدواخل بحكم القوة والسيف . انما كان توسعهم ـ غالب الاحيان ـ توسعا سلميا . هو نتيجة معاملاتهم التجارية . .

ولقد كانت المملكة القرطاجنية الممتدة بالمغرب تنقسم الى قسمين : الأول هو التراب الاصلي لدولة قرطاجنة الملحق بها . وهو بمثابة ام الوطن لبقية الاقسام . والثاني هو البلاد الاخرى الخاضعة لقرطاجنة والمحتفظة بهيآتها الحكومية الخاصة . كمثل بلاد الحماية .

اما القسم الأول فيشمل شمال المملكة التونسية واواسطها وشرقها . ويفصل عن بقية الاقسام الاخرى بحفير كبير يدعى الحفير القرطاجني . ويبتدي هذا الحفير التحديدي من طبرقة . وينزل منها على خط مستقيم حتى الشمال المغربي لمدينة قفصة . ثم ينحنى بانحدار لينتهي قرب مدينة المحرص الحالية .

واما القسم الثاني فقد كان شريطا طويلا من الأرض ممتدا من طرابلس وسائرا خلف التراب القرطاجني الاصلي . ثم يمتد على ساحل البحر ويشمل جميع المراسي الواقعة على المتوسط والمحيط .

(* حكومة قرطاجنة وسياستها *)

كانت الحكومة القرطاجنية في اول الامر حكومة ملوكية ثم انقلبت بعد حين الى حكومة جمهورية . يتولى امرها رئيسان ينتخبان لمدة العمر يلقب كلاهما «شفطيم» اي الحاكم . وهذه الكلمة تحريف كلمة سبط جمع اسباط وحول الرئيسين مجلسان منتخبان . اولهما يدعى المجلس الأعلى . واعضاؤه 300 فيه نواب اكبر العائلات واشهر التجار . وثانيهما مجلس القدماء وهو يشبه السينات وعدد اعضائه مائة . وهذه الجزئية لا يجب ان نستهين بها . بل علينا ان نلاحظ بان الدولة القرطاجنية . وهي اول دولة وطنية تونسية . هي التي سنت في العالم مبدا



صورة راهب قرطاجني



راهبة قرطاجنية

الحياة الدستورية والنظام النيابي . وحكومة الشعب لنفسه . بينما كانت جميع بلاد العالم خاضعة لاستبداد الملوك والمتسلطين .

وسارت الدولة سيرا منتظما في طريقها الديموقراطي . الا انه كانت تقع بها القلاقل احيانا . بسبب تنازع عائلتين شهيرتين . على تولي الرئاسة . بهما عائلة حنون وعائلة برقة(ومعناه البرق) .

انما سياسة قرطاجنة لم تكن سياسة رفق ولين نحو البربر الذين يقطنون تراب الجمهورية . فكانت امامهم حكومة متجبرة مستبدة . تعاقبهم بشدة على اقل الهفوات . وتستخلص منهم ضرائب فادحة . وناهيك بانهم كانوا يسلمون لها ربع محصولاتهم .

وكل دولة حادت عن سنن العدالة والانصاف . ولوكانت دولة وطنية . كان مآلها الخراب والاضمحلال . فهي باعمالها تلك توغر صدور رعاياها . وتبث في قلوبهم بذور الثورة . فيتحينون الفرص للانقضاض عليها . وموالاة اعدائها ضدها .

(* نفوذ قرطاجنة المدني *)

ماذا كان تأثير قرطاجنة من حيث المدنية على البربر ؟ لقد كان تأثيرا عظيما وجسيما . فالقرطاجنيون كانوا هم الاساتذة الذين حملوا الى البربر تعاليم مدنية كانت من اكبر مدنيات العالم . ولقد كان البربر قبل قدوم ابناء عمهم الفنيقيين على الفطرة الأولى ولم يختلطوا باي قوم من الاقوام بعد قدومهم من المشرق . فلما انتشر ملك قرطاجنة وعم سلطانها وكثرت مدنها واختلط البربر بالقادمين . اخذوا عنهم كل التعاليم المدنية التي أتوا بها . وهذا ناموس طبيعي وسنة اجتماعية لا تتخلف ابدا . فمهما اختلطت مدنية زاهرة بمدنية اخرى اقل منها شانا الا وابتلعت المدنية الزاهرة الجديدة تلك المدنية الاخرى . واخذ اصحابها يقلدون المدنية الجديدة حتى تصبح لهم عادة ويتناسوا القديم البالي .

كانت قرطاجنة تلم بين جدرانها 000 300 من السكان . ومخازنها الجسيمة غاصة بالسلع النفيسة والرياش الفاخر . وفيها كل ما تقتضيه هذه العظمة من ملاعب وهياكل وقصور . وحياة علمية وادبية . وعوائد واخلاق خاصة بذلك الوسط الكبير :

كل ذلك رسخ في قلوب البربر واعتادوه . واصبح سكان الحواضر لا فرق بينهم في شيء وبين القرطاجنيين الاصليين ، ولا ريب ان الثلاثمائة الف انسان التي كانت تقطن العاصمة ليست كلها ممن قدموا من فنيقيا . بل ان كثيرا منها ان لم نقل اكثرها كان من البربر الذين استوطنوا تلك المدينة واستطابوا حياتها . وكذلك كان الامر في بقية البلاد الاخرى .

اما اللسان فقد اندمج اندماجاً تاماً . واصبحت هنالك لغة وطنية قرطاجنية هي مزيج مما اخذه الفنيقيون عن البربر ومما اخذه هؤلاء عن اولئك . ويسهل علينا فهم هذا الاندماج عندما نتذكر ان الفنيقي والبربري من اصل واحد وان اللهجة السامية تشملهما . ولا ريب وان هذه اللغة القرطاجنية قد مهدت السبيل الى سيادة اللغة العربية بهذه الديار.

وتأثير هذه المدنية التي رسخت في القلوب لم تزل آثاره بادية الى يومنا هذا . ويقول الاستاذ فان جنيف في بحث له نشرته مجلة الابحاث الاجتماعية عام 1912 ما نراه الآن في بلاد القبائل يوميا من الاعمال الفلاحية والصناعية وبعض العوائد المدنية والاجتماعية . كل ذلك يرجع الى تأثير قرطاجنة الأولى .

اما من جهة الفلاحة فقد كان تاثير قرطاجنة عظيما . فان البربر وان كانوا يعرفون من قبل استعمال المحراث . فان قرطاجنة قد أتتهم بآلات متقنة وعلمتهم قواعد تربية المواشي . وماكان البربر يعرفون من الغراسة شيئا . فقرطاجنة هي التي ربت فيهم فكرة الاعتناء بالاشجار وخصوصا الزياتين . والكروم والتين والرمان .

ولقد كان البربر لا يعرفون معنى الاتحاد ولا يفهمون فكرة الدولة . فبلغ من نفوذ قرطاجنة على نفوسهم انهم اصبحوا يقيمون دولا كبيرة بربرية وبلغ من امر هذه الدول انها لعبت ادوارا كبيرة في الحرب البونيقية كما سيمر بنا . .

اما التاثير الديني فلم يكن عظيما جدا . ولئن اخذ بعض البربر عن قرطاجنة . عبادة بعل وثانيت (القمر) وشاركوا في اقامة الحفلات الدينية بالهياكل . واخذوا عادة تضحية النفوس البشرية تقربا بالالهة . فان اغلبية البربر ظلت محافظة على عوائدها الدينية العتيقة : عبادة الاحراش والغابات والقوى الطبيعية والجن ، ولا تزال

هذه العادات قارة في نفوس البربر الى اليوم .رغم مرور عصر المسيحية واستقرار احكام الاسلام .

فاذا نظرنا عامة الى نفوذ قرطاجنة بهذه البلاد راينا ان لها الفضل الاكبر والمزية العظمى في نشر المدنية ورفع مستوى الحالة العلمية والاجتماعية والاخلاقية . وان هذه المدنية هي التي استحكمت في نفوس البربر فلم يؤثر عليها الاحتلال الروماني الطويل الا تاثيرا بسيطا . وانها هي التي ساعدت اكبر مساعدة على توطيد حكم الاسلام وانتشاره السريع .

(هل كانت قرطاجنة حكومة وطنية؟)

اريد ان افتح هذا البحث في تاريخ قرطاجنة . وهو لم يفتح من قبل . لنعرف كيف يمكننا ان نعتبر قرطاجنة من حيث النظرة الوطنية . وهل يجب ان نعتبرها حكومة وطنية في البلاد . ام حكومة احتلال اجنبي ارضخت البربر لسلطانها ثم تقلص ظلها كحكومة روما .

بعد التأمل الدقيق يمكننا ان نؤكد تاكيدا ان حكومة قرطاجنة انما كانت حكومة وطنية بهذه البلاد . ولا يصح لنا باي اعتبار ان نعدها حكومة احتلال اجنبي .

فالبربر والفنيقيون كما علمت من اصل واحد . قدموا الى هذه البلاد من ناحية واحدة في عصور متباعدة .

ولم تكن قرطاجنة خاضعة لسلطان اجنبي . بل اسست ملكها بنفس البلاد المغربية وباعانة سكانها . وكانت هي العاصمة المحلية المصدرة لكل الاوامر والنواهي .

واختلط البربر والفنيقيون في الحواضر اختلاطا بينا حتى نشأ عنه تكون لغة وطنية جديدة هي غير الفنيقية والبربرية الخالصتين .

واصطبغت البلاد بالصبغة المدنية القرطاجنية . وانتشرت كما راينا العوائد والاخلاق القرطاجنية انتشارا عاما في التراب الوطني القرطاجني .

ثم ان الجند القرطاجني كان مؤلفا اغلبه من البربر . ولولا هذا الجند البربري لما كان لقرطاجنة تاريخ حربي .

ربما يقول لي معارض ان سياسة قرطاجنة مع رعاياها لم تكن سياسة حكيمة . وان مظالمها كانت تتفاقم احيانا . وكان البربر يثورون ضدها .

اقول نعم ! لم تكن سياسة قرطاجنة في كل ادوارها على غاية ما يرام . ولكنا نرى ان كثيرا من الدول الوطنية الاخرى كانت سياستها مع رعاياها أشد صرامة من سياسة قرطاجنة . وتاريخ نظام الاقطاعات في فرنسا وفي غيرها وحتى في روسيا قبل عام 1917 كان اقل رحمة واشد سيطرة من نظام قرطاجنة . فقد كانت هذه تكتفي باخذ ربع المحصولات من الفلاحين . والارض لهم . بينما كان رعايا الدول الاوربية قبل النهضة الحديثة يعملون كعبيد في ارض سادتهم وليس لهم من الأمر شيء اما الثورات البربرية فقد كانت ثورات طبيعية صادرة من قوم ارهقتهم المظالم . ولطالما راينا في التاريخ ثورات الامم ضد حكومتها القومية ان تفاقم استبدادها .

ثم انك سترى ان البربر لم يروا ابدا اية حالة في تاريخهم قبل الاسلام احسن من الحالة التي كانوا عليها مع حكومة قرطاجنة . وان الذين عاشوا منهم تحت سيطرة الرومانيين قضوا حياة بؤس وشقاء .

فقرطاجنة كانت اول حكومة وطنية نشأت بهذه البلاد وعظمت واسست ملكا ضخما . وكونت مدنية محلية هي التي اخرجت البربر من الظلمات الى النور . وتمكنت من العيش في هذه البلاد . بصفتها حكومة وطنية مستقلة ما يزيد على التسعمائة سنة ! اي نحو عشرة قرون . واثرت بمدنيتها تاثيرا عظيما على جميع العالم المعروف .

الحياة العلمية والادبية

سيمر بنا ان قرطاجنة قد أحرقت وخُربت تخريبا وتلك جريمة ارتكبها الرومان على العالم والمدنية . وبسبب احراقها وخرابها لم يتمكن الباحثون من العثور على بقايا الحياة العلمية والادبية بها .

انما بين ايدينا من آثار تلك الحياة كتاب الزراعة لماغون (1) . وهو سفر جليل عن الزراعة المحلية . وقد امر مجلس السينات الروماني بترجمته الى اللاتينية . ليكون

(1) كتب عنه صديقي البحاثة عثمان الكعاك فصلا بديعا جم الفائدة نشر في تقويم المنصور لسنة 1343 .

مرشدا للمستعمرين . ثم تقرير رحلة حنون البحار . وهو الذي ارسلته حكومة قرطاجنة ليستكشف سواحل المحيط الاطلسي . صحبة 60 سفينة بكل منها 500 رجل و50 جذافا . فوصل حتى جنوب خط الاستواء .

وهو تقرير بديع رأينا اثباته . ليكون لنا صورة عن الحياة العلمية والادبية بتلك المدينة الزاهرة .

٭ تقرير رحلة حنون (1) ٭

«هذا نص رحلة حنون . العضو بالمجلس الأعلى القرطاجني . التي قام بها خارج اعمدة هرقل (بوغاز جبل طارق) بالسواحل اللوبية . يقدمها هدية منه الى هيكل كرونش .

راى القرطاجنيون انه من اصالة الرأي ارسال حنون الى ما وراء اعمدة هرقل . ليختط هنالك مراكز يعمرها القرطاجنيون والافريقيون . فاخذ حنون عدته من الزاد وجميع لوازم الحياة . وابحر في ستين سفينة بكل منها 50 مجذافا . سافر يحمل معه 30 الفا ما بين رجال ونساء .

خرجنا من الاعمدة . وسرنا في البحر مدة يومين . وعندها اسسنا اول مركز قرب منبسط كبير من السهول والوهاد . واطلقنا عليها اسم تمياترون .

وقصدنا على الاثر ناحية الغرب فوصلنا الى لسان من الارض اللوبية تكتنفه الاشجار يدعى سولوايس . وهنالك اسسنا معبداً لبوزيدون الاله . واتجهنا بعدئذ نحو مشرق الشمس . وبعد انقضاء يوم وصلنا الى جوانب بحيرة قرب البحر . نبت عليها قصب طويل . وحولها ترعى فيلة جسيمة العدد وكمية جمة من الحيوانات الاخرى .

غادرنا هذه البحيرة وسرنا يوما فاسسنا على جانب البحر عدداً من المراكز هي : تجدار ـ كريان ـ جته ـ اكره ـ مليته ـ ارفيس ـ وبعد مغادرتنا لهذه النواحي وصلنا الى مصب نهر اللكسوس العظيم الذي اتخذ بداية مجراه من لوبيا . وعلى ضفافه ترعى

---

(1) حاذينا الاصل في التعريب وحتى في بعض التراكيب

سايمة اهل اللكسوس الرحالين ولقد تودّدنا اليهم كثيرا . ومكثنا معهم زمنا . وهنالك قوم يدعون الاتوبيون يعيشون على مقربة من مصب هذا النهر . وهم يقطنون ارضا تخترقها جبال شامخة وبها الوحوش الضارية قد اتخذت مساكنها . وهؤلاء الاقوام شديدوا اللؤم ويقال ان نهر اللكسوس ينبع من ارضهم . وحوالي النهر يسكن صنف من الناس لهم اشكال خاصة يدعون الترغلوديت . ويزعم اللكسوسيون ان هؤلاء القوم يسبقون الخيل عدواً .

اخذنا معنا عدداً من المترجمين . وسرنا نخترق الصحراء الى الجنوب . وهكذا سرنا يومين . ثم عرجنا في المسير ناحية الشرق . وبعد مسيرة يومين آخرين وجدنا خليجا دائرته نحو الميلين وفي وسطه جزيزة ليست لها اهمية دعوناها جزيرة صرنه . وهذه الجزيرة حسبما تبين لنا في سفرنا تكون موازية لقرطاجنة . حيث ان المسافة بينها وبين اعمدة هرقل . تظاهي المسافة التي بين هذه الاعمدة وقرطاجنة .

مررنا بعد ذلك بنهر عظيم . يدعى الكرينيس . ثم وصلنا الى بحيرة بها ثلاثة من الجزر كلها اكبر من صرنه . وبعد مسير يوم من مبارحتنا لهذه الجزر وصلنا الى طرف البحيرة . فوجدنا حولها الجبال الشامخة . التي يسكنها المتوحشون . ولما حاولنا النزول رمانا هؤلاء بالحجارة ومنعونا . فاستمر سيرنا حتى وصلنا الى نهر آخر عظيم جدا . به عدد جم من التمساح ومن البقر المائي . وعدنا بعد هذا الى جزيرة صرنه .

خرجنا منها . وسرنا نحو الجنوب اثنى عشرة يوما . وكان الاتيوبيون الذين يقطنون تلك السواحل يفرون منا كلما اقتربنا منهم . وهم يتكلمون لغة لا يفهمها حتى المترجمون اللكسوسيون الذين اخذناهم معنا . واقتربنا في آخر يوم من جبال شاهقة كللتها اشجار ذات اخشاب عطرة مختلفة الالوان ثم سرنا مع هاتيك السواحل يومين فوصلنا الى خليج عظيم يوجد على ضفافه الايسر سهل رحيب . ولما جن علينا الليل رأينا هنالك لهيب النار يتصاعد من كل مكان .

تزودنا ماء ثم واصلنا مسيرنا خمسة ايام . فاشرفنا على خليج هائل اعلمنا مترجمونا انه يدعى قرن المغرب . وبوسط ذلك الخليج جزيرة كبيرة . فنزلناها في رابعة النهار فلم نشاهد بها الا غابة تصاعدت اشجارها . ولما خيم الليل شاهدنا نيرانا يتصاعد

لهيبها . وسمعنا اصوات المزامير والطبول والدفوف مع دوي عظيم . فاستولى علينا الهلع . وامرنا المنجمون بمغادرة تلك الجزيرة . فبارحناها وابتعدنا عنها خائفين .

سرنا اربعة ايام اخرى . وكنا اثناء لياليها ترى لهيبا يتصاعد نحو النجوم . ويتبين لنا في النهار انه جبل عظيم يدعى مركبة الالهة «جبل الكمرون الناري» واستمر سيرنا ثلاثة ايام اخرى . بجانب اودية ملتهبة حتى وصلنا خليجا يعرف بقرن الجنون . وبداخله جزيرة في وسطها بحيرة . وفي وسط تلك البحيرة جزيرة اخرى يقطنها اناس متوحشون . عدد نسائهم يفوق عدد الرجال . واجساد هاتيك النساء مكتسية شعرا . ولقد حاولنا الاستحواذ على بعض الرجال فلم نستطع امساك احد منهم . لانهم كانوا يتسلقون الاشجار بسرعة غريبة ويدافعون عن انفسهم دفاعا شديدا . انما تمكنا من امساك ثلاث نسوة . لكنهن ظللن يعظظن ويخدشن الذين امسكوهن . وابين اتباعهم فقتلوهن . واتينا بجلودهن الى قرطاجنة . ولم نستطع ان نواصل سيرنا الى الامام لانه لم يبق لنا من الزاد شيء» .

التصادم الاستعماري بين روما وقرطاجنة

«(والحروب البونيقية)»

«(الجند القرطاجني)»

يجدر بنا ان نلقى نظرة سطحية على الجند القرطاجني . قبل ان نخوض غمار البحث في الحروب الفونيقية التي التهبت نيرانها بين روما وقرطاجنة .

يمكننا ان نقول بان الجند القرطاجني كان مؤلفا من قسمين عظيمين : الجند الوطني . والجند المعاون . والاول يشمل القرطاجنيين والبربر الذين يسكنون التراب الوطني . والثاني يشمل فرسان البربر من بلاد نوميديا المستأجرين من غال واسبان وغيرهم من امم أروبا .

كان القرطاجنيون قليلي العدد بالجند . لانكبابهم على التجارة والصناعة . انما كانوا هم القواد والضباط ومدبروا العسكرية . واذا ما وقع الوطن في خطر بادروا بالانخراط في الجندية لحماية البلاد .

اما الجند البربري فهو يؤلف فرقة المشاة . وكان هو السبب في عظمة قرطاجنة الحربية . وكان الجندي البربري صبورا شجاعا يتحمل الاتعاب بجلد كبير . وله سلاح خفيف يشتمل على قوس وخنجر وترس من الجلد . وليس له خوذة ولا سيف . اما في ساحة الحرب عندما يتقدم للصنف الأول فيعطى سلاحا اخر .

وفرقة الفرسان مؤلفة من النوميديين . وهم البربر الساكنون في بلاد الحماية . اي الشريط الممتد خلف التراب الوطني القرطاجني . ولهؤلاء الفرسان نفس السلاح الذي لفرقة المشاة . وهم يمتطون صهوة جياد الخيل البربرية الصغيرة الحجم المتينة . ولهم اقتدار كبير على تتبع العدو وعلى الغارة واعمال الاستطلاع .

واما الجند المستاجر فيشمل فرقا عديدة . فترى فيهم السود الافريقيين يحملون الرماح . والاسبانيون ويعرفون بلباسهم الابيض والاحمر ويحملون سيوفا رقيقة دقيقة الذبابة . والغولوا سكان فرنسا الاقدمين ولا يلبسون الاكساء يستر اسفل الجسد وتمسكون بكلتا يديهم سيوفا عريضة . ثم سكان الباليار (الجزائر الخالدات) وبايديهم آلات لرمي الحجارة الصغيرة اوكرات من الرصاص . وقلما يخطى الباليارى هدفه . فهو يتدرب على الرماية منذ نعومة اظفاره . حتى اذا ما شب اخذ مربوه يضعون له طعامه في مكان مرتفع فلا يمكنه التحصيل عليه الا بعد انزاله برميته .

وكل فرقة من هذه الجنود كانت كما ترى تلبس لباسها القومي . وتتكلم لغتها المحلية . وتقاتل بسلاحها الخاص . وما كان هم هذه الفرقة المعاونة الا اخذ اجورها فهي تقاتل لاجل الارتزاق لا لأجل قرطاجنة .

اسباب الحرب البونيقية

انتصبت الدولة الرومانية حديثا بشبه الجزيرة الايطالية . وتوطد سلطانها . فاصبحت تلقى انظارها الطماعة الى مختلف سواحل المتوسط . حبا في التوسع والاستعمار . وكانت قرطاجنة في هاتيك العصور ملكة البحار بلا منازع وصاحبة السلطان المطلق بها . فايقن الرومانيون ان قرطاجنة هي خصمهم الالد . وانه ليس امامهم الا احد امرين : اما الاقتصار على املاكهم الايطالية وغض النظر عن كل توسع واستيلاء . واما الاقدام على محاربة قرطاجنة وقهرها ليمكن لهم التوسع والانتشار.

وكان الجشع الاستعماري قد استولى على نفوسهم فعولوا على الامر الثاني . واخذوا يتحيزون الفرص للانقضاض على قرطاجنة . .

وكان هذا الطمع هو السبب الوحيد لانتشاب الحروب البونيقية . نسبة الى البونيقيين وهو الاسم الذي يطلقه الرومان على القرطاجنيين تلك الحرب الهمجية التي دامت اكثر من قرن (من 146 الى 264 ق م) في ثلاث دفعات هائلات . وانتهت بدمار قرطاجنة واحراقها .

الحرب الأولى . اسبابها

تقدم لنا فيما سلف ان رجال قرطاجنة تمكنوا بعد جهد من الاستقرار في القسم الغربي من صقلية . اثر حربهم مع اليونان . وكانت بقية الجزيرة منقسمة الى حكومتين : في الشمال الشرقي حكومة المامير تان وهم من اصل ايطالي . وفي الجنوب الشرقي حكومة سرقوسة وعليها الملك هيارون (حكمها من سنة 216 الى 270 ق م)

فانتشبت الحرب فجأة بين الحكومتين ـ حكومتي صقلية ـ وهجم المامير تان على دولة سرقوسة فاحتلوا مسينا وتقدموا . ولعل رومة كانت هي مدبرة هذه الحرب لتتمكن من المداخلة والاستيلاء على الجزيرة .

جهز الملك هيارون جنوده . وزحف لملاقاة المامير تان . فدفعهم وحاصرهم . فاستغاثت حكومتهم المعتدية بروما المدبرة . فارسلت هذه جندا لاعانة المامير تان .

لما دخل الجند الروماني ارض صقلية ايقنت قرطاجنة ان روما تريد الاستحواذ على تلك الجزيرة بمداخلتها هذه . وانها ستقهر لا محالة حكومة الملك هيارون فتحتل بذلك كامل القسم الشرقي من الجزيرة . وعندئذ تهاجم قسمها الغربي . ورأت قرطاجنة اذاك انه من الواجب عليها ان تبادر باتخاذ الوسائل اللازمة لصد هذه الغارة . فانتصرت للملك هيارون ضد خصومه وارسلت له جندا يعينه . فتقابل الجندان الروماني والقرطاجني في غربي الجزيرة . وبذلك اعلنت الحرب رسميا بين الدولتين . وهكذا انتهت تلك المحالفة التي عقدت بينهما منذ زمن بعيد . وهذا شأن المعاهدات . فانها لا تدوم الا ما دامت المصالح متوحدة والمطامع غير متصادمة . اما اذا انتهى ذلك اصبحت هاتيك المعاهدات خرقا بالية من الورق لا قيمة لها .

الحرب الأولى البحرية

ما كادت تدق طبول الحرب بين الجانبين . حتى تقدم الرومانيون بسرعة ودحروا القرطاجنيين والسرقوسيين ولم يكن الرومانيون اذاك قد انتشروا في البحر . وليس لهم من الاسطول ما يكفي للقيام بحرب على سطح المياه . وكان القرطاجنيون يقولون احتقارا لرومة «لا يستطيع الرومانيون ان يغسلوا ايديهم في البحر بدون اذن منا» فادرك الرومانيون تاثير ذلك الضعف . وسعوا بهمة كبيرة في ابتناء سفن جديدة فانجزوا في مدة قريبة مائة مركب . وغنموا اثناء الحرب من القرطاجنيين مراكب اخرى . فتكون لديهم اسطول قوي . وعزموا على السفر الى قرطاجنة . وضربها في ترابها الوطني . وتمكنوا من جمع 330 سفينة في كل منها 300 جذاف . وتحمل جندا عتيدا يبلغ 00 400 رجل .

وكان الجند القرطاجني ساعتئذ يتركب من 50000 رجل وعمارتهم البحرية تشمل 350 مركبا . فجرت اول حرب بحرية بين روما وقرطاجنة قرب مدينة ميلس سنة 260 . ودارت الدائرة في هذه المعركة على الاسطول القرطاجني . وعزز الرومانيون هذا الانتصار البحري بانتصار آخر في مدينة ايكنوم . عام 260 وعندئذ عزموا على اجتياز البحر الى افريقيا .

الحرب بافريقيا

سافر القنصل ريغولوس [1] يقود الجند الروماني الى افريقيا . فارسى على اقليبية . وانزل بها جنده . ومن ثم اخذ يهاجم اطراف البلاد ويحتل قطعا من تراب قرطاجنة بجهة الشمال . ولما جاءت الشتاء رجع الاسطول الروماني الى بلاده . تاركا بالارض القرطاجنية ريغولوس وجنده . واستمر يتقدم ببطء وثبات . وبين آونة واخرى تنضم اليه جموع من البربر طمعاً في نهب قرطاجنة .

وقد ساد القلق والانزعاج بالعاصمة . وكانت مضطربة وقد تمزقت من خلاف عائلتي حنون وبرقة . فارسلت للقنصل الروماني تعرض عليه الصلح . لكنه قدم

(1) قائد روماني شهير تولى القنصلية سنة 276 وسنة 252 ق م .

اليها شروطا ثقيلة انفت قبولها . فصممت على استئناف الحرب . وتقدم ريغولوس فنصب عليها الحصار .

في هذه الظروف الحرجة والمركز الخطر . قدم من مدينة اسبارطة . وكانت مدينة زاهرة ببلاد اليونان . قائد كبير يدعى كسانتيب . وعرض نفسه لخدمة قرطاجنة . فقبلته . واخذ ينظم الجند القرطاجني ويدربه على استعمال الطرق الحربية المقدونية واستخدام الفيلة . ولما اتم تعليم الجند واكمل نظامه خرج به لمقابلة الرومانيين .

وكان الجند القرطاجني اذاك مرتبا ترتيبا بديعا : في القلب 14000 امن المشاة . وفي كل من الجناحين 4000 من الفرسان . وفي الطليعة فرقة بها مائة من الفيلة .

اما الجند الروماني فكان عدده حوالي الثلاثين الفا . وعند انتشاب المعركة بادر الرومانيون بالهجوم على قلب الجيش . فاشتبكوا مع فرقة الفيلة .واذاك انطبقت عليهم فرقتا الجناحين . وكانت معمعة هائلة وملحمة رهيبة . اسفرت عن هلاك الجند الروماني برمته . ووقع قائده ريغولوس اسيرا . وذلك سنة 255 ق م . وحاصر القرطاجنيون بقايا الحامية الرومانية باقليبية . وكانت روما قد ارسلت عمارة بحرية لترفع فلول جيشها . لكن الزوبعة البحرية قد اتلفت تلك العمارة بعدما رفعت بقايا الجيش . فلم يرجع منه لرومة احد .

قال الاستاذ مارسي في تاريخه : ان هذه الانباء قد حطت قوى رومة الادبية . ولو ان قرطاجنة اغتنمت الفرصة فنشطت الاعمال الحربية لكانت نتيجة الحرب بلا ريب ملائمة لها . لكننا نرى قرطاجنة لا تبذل الجهد الحسن الا اذا خيم الخطر ووقف العدو على بابها فقط . وذلك اما لخللها الاداري . واما للغريزة الخالقة في الشعوب السامية وهي انها لا تكترث لامر الا اذا اشتد خطبه وصار أمرا حتميا .

الرسول الفدائي

اثر هذا الانتصار الهائل . اخذت قرطاجنة تنتقم من البربر الذين خانوا وانضموا الى المهاجمين . فشنقت رؤساءهم . وضربت عليهم غرائم فادحة . وكان عليها ان

تبدل بعد ذلك سلوكها السياسي . وتخفف من الشدة والعنف . لكنها لم تفعل من ذلك شيئا .

ورأى القرطاجنيون انهم يستطيعون الاحراز على صلح مفيد بعد هذا الانتصار . فارسلوا لرومة نفس القنصل ريغولوس الاسير . بعد ما تعهد لهم انه يرجع اليهم لا محالة . ارسلوه ليعرض الصلح على حكومته مع قرطاجنة .

سافر القنصل .ولما حل برومة واجتمع برجالها . حذرهم من مصالحة قرطاجنة . واكد لهم ان طلبها هذا لم يصدر الا عن ضعف ووهن . ثم حرضهم على استئناف الحرب حيث الانتصار محقق لهم . ثم رجع الى قرطاجنة وفاء بوعده . وهو يعتقد انه سيلاقي حتفه هنالك . وما كان الحاح اصدقائه وتوسلات زوجه وبكاء ابنائه ليصده عن الوفاء بالوعد . فرجع . واذاقه القرطاجنيون اليم العذاب . ثم قتلوه . فعاش حيا خالدا على صفحات التاريخ . يمثل الوفاء بالعهد والتضحية في سبيل الوطن .

الصلح

اخذ الرومانيون بنصائح القنصل ولم يصالحوا . واستؤنفت الحرب بصقلية حول مدينتي مرسالا وتراباني . ولقد ابدى القرطاجنيون تحت قيادة عملكرض [1] ثباتا عجيبا بجبل اركته مدة ستة اعوام . لكن هذا القائد قتل اثناء معركة . واضطرت قرطاجنة بعدئذ لعقد الصلح . فانعقد عام 241 . وكان من شروطه ان قرطاجنة تدفع لرومة غرامة حربية قدرها 2000 تلون ذهبا (نحو 12 مليونا من الفرنكات) وتسلم لاخصامها جزيرتي صقلية وكورسكا وهكذا انتهت الحرب الأولى . بعد وقائع دامت 32 عاما . وما ربحت منها قرطاجنة غير اضمحلال هيبتها في نفوس البربر وفي نظر الدول الاخرى وخراب ماليتها . بينما اظهرت عدوتها رومة الناشئة مقدرتها ومهارتها واكتسبت احسن سمعة في مختلف البلاد .

حرب المستاجرين

رجع الجند القرطاجني الماجور . يجر ذيل الخيبة . طالبا من الحكومة دفع

(1) غير عملكرض برقة القائد الشهير ووالد حنبعل .

اجوره التي قاتل لاجلها . لكن خزينة قرطاجنة كانت خاوية . وقد التهمت الحرب جميع ما بها . فماطلت . وبقي الجند ينتظر . ثم اخذ يهدد . ورأت الحكومة الخطر . فدفعت الى كل جندي قطعة ذهبية . وطلبت منهم الارتحال وحمل اثقالهم وكل متاعهم الى مدينة سيكا (الكاف) حيث تتولى حسابهم . فساروا . وانتظروا طويلا فاعياهم الانتظار ، اذاك جاءهم القائد القرطاجني حنون . يقول لهم على لسان الحكومة انها لا تستطيع ان تدفع اليهم الاجور المتفق عليها وتطلب منهم التخفيض . فحنقوا واشتد لغطهم . فما استطاع حنون ان يتفاهم معهم . وكل يتكلم رطانته القومية . وفيهم الغولي والايطالي . والاسباني . والباليازي واليوناني . والاسود الافريقي . فقفل راجعا الى قرطاجنة . وزحف هذا الجند الثائر فخيم على ربوع تونس ومعه النساء والاطفال .

استمرت قرطاجنة مسالمة . وارسلت لهذه الجموع المؤن والاقوات . ووعدت بتسديد الطلبات . لكن الثائرين تشددوا . وطلبوا دفع ثمن الخيول التي فقدوها في الحرب . فقالت قرطاجنة لننتخب حكما نرضاه جميعا . ونكل اليه الفصل في هذه القضية . ورضي الجميع بتسميته جيسكون القرطاجني . وقد عرفه الجند بصقلية .

جاء هذا الحكم الى المعسكر يحمل معه الاموال . وابتدا بمحاسبة الجنود والدفع لهم . وما كان ذلك ليروق في عيني رواد الفتنة الطامعين في النهب والسلب وحتى في الملك والزعامة . وزعيم هؤلاء ماتوس الافريقي وسانديفوس اليوناني . فكانا يذكيان نيران الفتنة حتى آل الامر الى التقاتل . وحاول الحكم تهدئة الافكار فلم يفلح . واخذ الجند يشدد في مطالبه . فطلب التعويض لا عن الخيول فحسب . بل طلب ثمن الاقوات التي اشتراها . فنفد صبر الحكم جيسكون وصاح مغاضبا : «اطلبوا ثمن ذلك من ماتوس» . فانقضوا على الحكم المسكين واوثقوه كتافا .

ثم انقسم الثائرون الى فرقتين : اولاهما سارت الى مدينة اوتيكة فنصبت عليها الحصار . وذهبت الثانية فحاصرت هيبو زارتيوس (بنزرت) وقد انضم الى هؤلاء الثائرين جموع اخرى من البربر . سواء من محبي النهب والسلب . او من المغاضبين الذين اثقلت الضرائب كاهلهم .

ولم يكن لقرطاجنة اذاك شيء من المال او السلاح . تقابل به الذين صمموا على

خرابها . ولم تلف في تلك الساعة الرهيبة سوى قوة واحدة : القائد عملكرض لبى هذا القائد دعوة وطنه واخذ على عاتقه القيام بامر الدفاع . فتمكن بفضل عزيمته من تأليف جند منظم من البربر وابناء قرطاجنة . ومعه 70 فيلا وسار أولا ففك عن اوتيكة حصارها . واخذ يقتفي اثر الثائرين . وهؤلاء يفرون امامه خوفا من انتشاب معركة في السهول بعد ما انكسروا انكسارا عند وادي مجردة . فاتخذوا طريقهم سيرا في اعالي الجبال . وتخلى عن الثائرين احد امراء البربر المسمى نرهفاس وانضم صحبة 200 من رجاله الى القوة القرطاجنية . فاستبشر عملكرض بقدومه وزوجه ابنته . تقربا من البربر ومحوا ما بقي في نفوسهم من اثر سوء المعاملة . وجرت ملاحم اخرى بين الجند الوطني والثائرين . انهزم فيها الاخيرون .

ولما بلغ الجند المستاجر القرطاجني بسردينيا ثورة اخوانه بافريقيا . اعلن لواء العصيان ، وقتل قواده القرطاجنيين . ثم كاتب الثائرين الافريقيين يحذرهم من اسيرهم جيسكون الحكم . فتفاوض هؤلاء في شانه . وكل منهم يصيح بلغة قومه «اقتلوه ! اقتلوه» .

فاتوا بالمسكين صحبة سبعمائة من اسارى القرطاجنيين فقطعوا آذانهم وايديهم وارجلهم . ثم رموا بهم في قعر سرداب هائل . وهنالك قضوا نحبهم في مستنقع من الدماء . وطلبت قرطاجنة تسليم الجثث اليها . فأبى عليها الثائرون ذلك . واشعروها انهم في المستقبل سيقتلون كل اسير قرطاجني . ويقطعون ايدي كل اسير معاون لقرطاجنة .

اذاك صارت الحرب هائلة والفظائع منكرة . وتفاقم امر الثوار الا ان مهارة عملكرض غلبتهم على امرهم . فتقهقروا . ووقعوا في مضيق يدعى خنقة الحجاج بين جدارين من الصخور . ومنع عنهم القائد طريق الخروج بحفير عميق . وراءه سد منيع . فانحصروا هنالك ولم يجدوا مخرجا . وطال عليهم الامد فانتهى ما لديهم من الزاد . فاكلوا خيولهم . ثم اكلوا جيف الاموات . واشتدت المخمصة فاكلوا الاسارى . ثم اكلوا العبيد . ثم اكلوا لحمهم وهم احياء .

اذاك ارسلوا قوادهم يطلبون الصلح من عملكرض . فاحتفظ القائد باولئك الرؤساء . ونادى بالهجوم العام على تلك الجنود الثائرة . فاشتعلت معركة هائلة .

اسفرت عن هلاك الجند الثائر هلاكا تاما . فلم يبق منه احد . وكان يبلغ الاربعين الفا . واستسلم ماتوس بعدئذ وكان متحصنا بتونس لأسر القرطاجنيين . فنكلوا به تنكيلا . ومزقوه يوم الاحتفال بالنصر تمزيقا .

وهكذا انتهى امر هذه الحرب الفتاكة سنة 238 . بعد ان استمرت ثلاثة اعوام وتسعة اشهر .

ملحق الحرب الأولى

كانت نتيجة الحرب الداخلية بافريقيا وسردينيا . ان روما نكثت حالا معاهدة عام 241 . واسرعت بارسال جندها الى سردينيا فاحتلتها بدون مقاومة تذكر . ولما انتهت قرطاجنة من امر الثوار ارادت استرجاع الجزيرة . فاعلنت الحرب من جديد بين الطرفين . لكن قرطاجنة وقد كانت منهوكة القوى . رضيت سنة 239 بتسليم الجزيرة لروما . مع دفع غرامة حربية اخرى 1200 تلون ذهبا .

فتح اسبانيا

انتهت حرب الثوار بنصر قرطاجنة ونجاتها من الخطر . والفضل يرجع الى القائد عملكرض فاصبح نفوذه بعد ذلك النصر عظيما وكلمته عالية . وابتدا في قرطاجنة يسلك سياسة حكيمة . سياسة تعديل النظامات القديمة . وتخفيف الوطاة على الرعايا . وجلب قلوب الامة نحو الدولة . لكن اصحاب النفوذ والسلطة خافوا ان يستحوذ عملكرض على الاحكام شيئا فشيئا . وحكموا بان مشروع اصلاحه مخطر جدا . وان تغيير النظام الحكومي مجلب للمهالك . ثم اخذوا ينسبون للقائد كل تهمة باطلة . وهو منقذهم . قصد ابعاده عن السلطة . وقرر المجلس فتح اسبانيا وانتدب عملكرض للقيام بذلك الفتح ، تخلصا منه .

ورأى القائد ان مقاومته لا تجدي نفعا . وانه لا يستطيع اتمام الاصلاح وكل القوات ذات النفوذ مجتمعة ضده . فامتثل للامر . واستعد لفتح اسبانيا . حوالي سنة 237 .

سار مع سواحل المغرب صحبة جند بربري عتيد . ثم امتطى صهوة سفنه .

فحط على ساحل اسبانيا . وكانت لا وحدة لها ولا نظام . فافتتح بعضها طوعا وبعضها كرها . وتمكن بفضل ما اوتيه من مهارة في السياسة واستقامة في الاعمال . وحذق في ادارة الحرب . تمكن بفضل ذلك من الثبات في شبه الجزيرة الاسبانية . ومكث بها تسعة اعوام . يؤسس المدن خلالها . ويوافي قرطاجنة بالهدايا الثمينة والتحف الغالية . ويدرب في البلاد الجديدة جندا عتيدا لمصارعة رومة واخذ الثار منها .

القائد حنبعل [1]

(اعظم قواد العالم)

كان لعملكرض ولد يدعى حنبعل . ولد عام 247 . واخذ صفات والده واخلاقه وهو صبي . فكانت نفسه لا تصبو الا الى الحروب والكفاح . ولطالما الح على ابيه ان ياخذه معه الى ساحة النزال . وابوه يأبى عليه ذلك لصغر سنه . الا انه اجابه الى طلبه في آخر الامر مشترطا عليه ان يقسم له في الهيكل يمينا على معاداة رومة والسعي للايقاع بها الى الابد . فاقسم الولد تلك اليمين التاريخية الهائلة . بحماس عظيم . وكان سنه اذاك لا يجاوز التسعة اعوام .

مات عملكرض سنة 228 فخلفه صهره ازربعل في رئاسة الجند . وكان حنبعل تحت لوائه . فتقدم الجند القرطاجني في شمال اسبانيا . حتى وصل الى نهر العبر . واذاك توجست روما شراً . واسرعت بعقد معاهدة مع القرطاجنيين سنة 221 تمنعهم فيها من اجتياز ذلك النهر.

وفي تلك السنة قتل القائد ازربعل تحت طعنة مملوك غولي . بعد ان اختط مدينة قرطجنة . واجمع الجند عندئذ على تسمية حنبعل قائدا لهم .

---

(1) اسم عربي صريح مركب من كلمتين : حن بعل فلا صحة لمن يكتب هنيبال او هني البال او غير ذلك. وبعل كما اسلفناه هو اله الفنقيين والقرطاجيين اغلب اسمائهم تركب معه كما عندنا في الاسلام : نصر الله وفتح الله وعبد الله .

(1) يدعوه الاروبيون اسدروبال وعربة البعضى صدر بعل او اسد رتبال وهو غلط . فاسمه وجد منقوشا هكذا وهو عربي .



أعظم قواد العالم
القائد العظيم حنبعل

وما كاد هذا الرجل العصامي يستلم قيادة الجند ويتولى امور اسبانيا حتى وفد على قرطاجنة واخذ في حشد جند عظيم كله من البربر كما رواه تيتوس ليف . وسار به الى اسبانيا ليتمكن من تنفيذ الخطة التي عول على القيام بها .

صفات حنبعل واخلاقه

* عن المؤرخ الروماني الشهير «تيتوس ليف» [1] *

«ما كاد حنبعل يحل بمعسكر ازربعل . حتى اتجهت نحوه سائر الانظار . وخيل لقدماء الجنود انهم يرون عملكرض في ابان شبابه قد بعث اليهم من جديد . اذ قد ارتسمت على وجه ذلك الشاب نفس علائم العزيمة التي كانوا يشاهدونها على محيا قائدهم الأول . وبرزت من مقلتيه نفس هاتيك النظرات النارية التي الفوها وما لبث غير قليل حتى ظهرت قيمته الشخصية واصبح لا يحتاج الى اسم والده ليجمع حوله القلوب . ولم نك نعلم من قبل ان فكراً يستطيع ان يجمع في آن واحد بين امرين متضادين : التامر والانقياد اما حنبعل فقد جمع بينهما . لذلك لا يستطيع انسان ان يحكم هل كان الجند يحب حنبعل اكثر مما يحب القائد . او كان القائد يحبه اكثر من محبة الجند له .

وكان ازربعل لا ياتمن سوى حنبعل على قيادة اية حملة عنيفة . وكان الجند يبدي تحت قيادته انقيادا وثقة لا حد لهما .

ولحنبعل جسارة عديمة المثال على مواجهة الاخطار . فاذا ما ادلهمت النوائب رايته محافظا اتم المحافظة على ثباته وانتباهه العجيب . وما كانت الاعمال مهما تجاسمت وكبرت شقتها لتؤثر ادنى تاثير على جسمه او فكره . وليس كذلك للبرد القارس او القيظ الشديد ادنى مفعول عليه . وكان لا ياكل الا ما يفي بالحاجة لسد الرمق لا للتلذذ . اما يقظته ومنامه فما كانا منوطين بليل او نهار . فكان اذا ما انتهى من اشغاله في اية ساعة من الساعات جنح الى الراحة . غير مفتش عن فراش وثير . ولا عن وحدة وسكون . بل طالما كنت تراه غارقا في بحبوحة النعاس وهو منطرح في وسط

---

(1) ولد عام 59 ق م . وتوفي عام 17 بعده . وهو ايذي خلد ذكر الحروب البونيقية ووقائعها .

المعسكر العام . او بين صفوف الطلائع المتقدمة . وقد ائتزر بازار جندي بسيط . اذ لم يكن يرتدي الا لباس بقية الجنود ولم يمتز عليهم بشيء خاص . انما كان بذخه الوحيد منصرفا الى فرسه وسيفه . ولقد كان احسن المشاة واحسن الفرسان فبينما تراه اول المتقدمين اثناء الهجوم . تراه عند العودة آخر الراجعين .

انما كانت له مع هذه المحاسن مساو تقابلها : قساوة وحشية . وغدر يفوق الغدر الفنيقي . وتجرد عن الصدق والآداب . وبعد عن الخوف من الآلهة وخشيتها . لا يحترم يمينا اقسم عليه [1] . ولا يدين بدين» .

الحرب البونيقية الثانية

اسبابها

السبب في هذه الحرب الثانية هو حب الانتقام من رومة . والاخذ الثار منها . واسترجاع ما سلبته من املاك قرطاجنة اثناء الحرب الأولى .

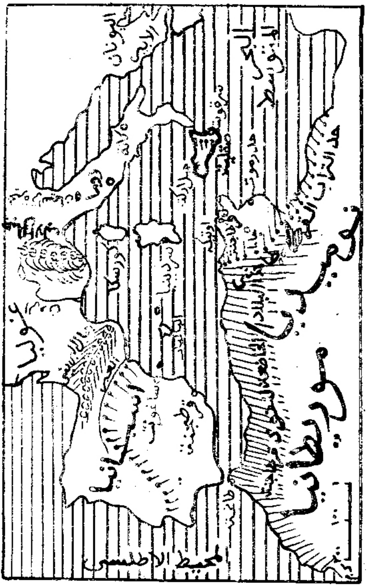
ولما رأى حنبعل في جنده اللياقة والمقدرة على مصارعة رومة . وطد عزمه على الزحف عليها ومحقها . فنكث معاهدة عام 221 القاضية بعدم اجتياز نهر العبر . ولم يستشر قرطاجنة في ذلك . وهاجم مدينة ماغونت التي كانت في اسبانيا خاضعة لسلطة الرومان . وكان دفاع اهلها شديدا . فتحملوا ضيق الحصار سبعة اشهر . ولما يئسوا من الخلاص احرقوها على انفسهم . واحتلها بعد ذلك حنبعل .

انزعجت الحكومة الرومانية من هذا الأمر . وارسلت من لدنها فابيوس سفيرا الى قرطاجنة . يطلب منها تسليم حنبعل . فتذاكر المجلس القرطاجني في الأمر . واسفرت النتيجة على رفض ذلك . فاعلنت الحرب من جديد بين الدولتين . بعد ان ساد السلام 22 حولا .

قطع جبال الالب

اتحد حنبعل سراً مع فرق عديدة من الغوليين بجنوب فرنسا . وخرج في ربيع

(1) يمينه على معاداة رومه !



خريطة الحرب البونيقية

سنة 218 من مدينة قرطجنة يجر وراءه جندا يبلغ 90000 مقاتل من المشاة و12000 من الفرسان و37 فيلا .

ابتدأ اعماله باخضاع شمال اسبانيا وادخاله تحت سلطته . فاتم ذلك بدون ان يصادف صعوبة كبرى . وترك في البلاد التي اخضعها عدداًعظيما من الجنود . اظهارا لثقته في الانتصار . فبقى في 59 الفاً . وقطع بسرعة غريبة جبال البيريني الفاصلة بين اسبانيا وفرنسا . ثم سافر الى التخوم الرومانية بعد ان عزز جنده بفرق عديدة من الغوليين .

وكان دعاته يمهدون له مع مختلف القبائل السبيل ويستلبون نهاهم بلمعان الاصفر الرنان القرطاجني . وذلك مامكنه من سرعة العمل والوصول حالا الى تخوم رومة .

عبر نهر الرون بعد ان صادف مقاومة عنيفة من القبائل النازلة على ضفافه ووصل بعد قليل الى جبال الالب الهائلة . جبال الالب المنيعة !

ما كانت تلك الجبال التي تناطح السحاب لتتغلب عظمتها على عظمة عزيمته فصمم على القيام باعظم عملية حربية عرفها التاريخ القديم : اختراق جبال الالب والانحدار على ايطاليا من ورائها .

ابتدا اعماله في جهة معبر سان برنار الصغير . ورمى بجنده في وسط تلك الجبال وهاتيك الثلوج . فذاق الجند عذابا اليما . وتكبد خسائر فادحة . واستمر ذلك الجلد نصف شهر كامل . فلما انتهت هذه العملية المدهشة . وعبر الجند الى ما وراء الالب . كانت الخسائر تشمل اكثر من نصف الرجال واكثر الفيلة . ولم يبق لدى القائد حنبعل الا 12000 من المشاة و 6000 من الفرسان و 8000 من الاسبان .

بعد استراحة قليلة عزم على مصادمة الرومان قبل ان يستفيقوا من دهشتهم فقابلهم في عدة مواطن . ونال عليهم انتصارا عظيما بضفاف نهر ترابي عام 218 فاسر منهم 15000 وزعهم على جنوده بصفة عبيد .

لكنه لم يشأ ان يتقدم بعد ذلك . خيفة ان يقطع عنه خط رجعته . فقضى

مدة يتفاوض مع قبائل الشمال الايطالي لعقد اتفاق معهم يخوله حرية المرور . وبعد حصول ذلك استمر على تقدمه . حتى وصل الى جبال الابنين فاخترقها مقتحما مصاعب جسيمة . ولما خرج منها وقع في مستنقعات كلوز يوم فقضى اربعة ايام في اختراقها . وكان ممتطيا صهوة آخر فيل لديه . وفي اثناء هذه العملية فقد احدى عينيه .

وكان الرومانيون قد اتبعوا في هذه الاثناء خطة حكيمة . وهي انهم ابوا ان يقابلوا القائد القرطاجني في معركة حاسمة . لئلا يعرضوا قوتهم للتلف . واكتفوا بمناوشته وعدم ترك الراحة له ومنعه من التزود عالمين انه سيأتي يوم لا ريب فيه يصبح فيه فاقدا للمؤونة . ويومئذ يغلبونه لا محالة .

ولقد ادرك هو ايضا اهمية هذه المسالة . فارسل فرقا من جنده تجوب انحاء الشرق الايطالي لتاتيه بجميع ما فيه من المؤن والاقوات . ثم تقدم حتى وصل بحيرة تراسيمان عام 217 وعلى ضفافها نال انتصارا عظيما .

لكن الغوليين الذين انضموا الى صفوفه طمعا في نهب رومة . قد سئموا طول المعركة . وراوا ان النتيجة غير قريبة المنال . فانفضوا من حوله . تاركين بصفوفه فراغا كبيرا . وماكان يؤمل وصول اية نجدة من قرطاجنة اليه فاخذ يشعر بحراجة الموقف وعزم على القيام بعملية حاسمة .

الانتصار العظيم بكانة

تقابل الجندان . والكل يعلم ان نتيجة هذه المعركة هي التي ستكون القول الفصل . ودارت رحى الحرب بشدة هائلة . وابدى كل من الفريقين حمية وبسالة . وطالت المعركة واشتدت فظاعتها . وانجلت اخيرا عن هزيمة رومانية كبيرة . وانتصار قرطاجني هائل . وقتل من الرومانيين في معركة كانة هذه نحو الخمسين الفاً . بينهم كثير من الاشراف . وذلك سنة 216 .

ساد الانزعاج اثر هذا الانكسار برومة . وتهيج الشعب . واخذ الناس يصيحون : حنبعل على الابواب ! وقد اصبحت هذه الكلمة مثلا لاتينيا (Hannibal ad porte) لكن مجلس السينات ظل محافظا على ثباته ورباطة جاشه . فقرر ان تقوم الامة بحداد

وطني مدة ثلاثين يوما . واوقفت اثناء هذه المدة العبادة واغلقت المعابد . ثم ارسل القوم الى اثينا رسولا . يستشير الصنم ابولون [1] فيما يجب عمله فاعطاهم الصنم اشارة صالحة جدا : وهي ان يدفنوا رجلا وامراة بقيد الحياة في سوق البقر . ففعلوا .

تقدم حنبعل بجهة الجنوب الايطالي . وكان اهل هذا الجنوب يتحملون بتذمر سلطة رومة عليهم . اذكانت سياستها معهم شرسياسة . فانضموا اليه . لكن حنبعل لم يستطع رغم ذلك ان يهاجم رومة مطمح انظاره ولم يقدم على محاصرتها . نظرا لقلة المواد وعدم المدد . وكان صديقه القائد مهر بعل يحثه على المهاجمة ويحرضه عليها . فلما راى منه عدم الاقدام قال : له هذه الكلمة التي صارت مثلا فيما بعد : انك تعرف كيف تنتصر ياحنبعل . لكنك لا تعرف الاستفادة من النصر .

ولماذا لم يبادر حنبعل بالهجوم على رومة ؟ وهل ارتكب غلطة حربية بعدم هجومه حالا ؟ يقول بعض الباحثين ان حنبعل لو اسرع اثر انتصاركانة بمهاجمة رومة لتمكن بلا ريب من دخولها . ويقول آخرون انه لو هاجم العاصمة لكان نصيبه الاخفاق والانكسار .

اما نظرية حنبعل في التاخر عن المهاجمة فقد كانت مبنية على ثلاثة امور :

أولا ــ كان التعب قد انهك جنده وذهب بقوته وهو محتاج لقليل من الراحة . بينما الجند الذي كان برومة لم يباشر بعد قتالا . ثانيا ــ لم يبق لدى حنبعل بعد الخسائر ومع جملة من انضم اليه الا نحو 30000 مقاتل . بينما كانت رومة تلم بين اسوارها 50000 رجل عدى الواقفين بواجهة الحرب . ثالثا ــ كان حنبعل لا يؤمل الحصول على اية نجدة من قرطاجنة اذا نقصت قوته .

فكيف يمكنه ان يهاجم بقوة صغيرة منهوكة القوى . قوة كبيرة لا تزال مالكة نشاطها ؟

وكان المجلس الأعلى بقرطاجنة في خلاف كبير من جراء هذه الحرب فشق يقول بوجوب وضع حد لها . واسترجاع حنبعل حسدا من عند انفسهم . وفريق يرى

---

(1) احد الالهة القدماء وهو رمز الشمس . ولعل اصلة عربي : ابو اللون ولا يخفى ان الشمس اصل الالوان كلها .

وجوب الاستمرار وارسال نجدة اليه . واستمرت الحرب واستمر الخلاف . حتى جاءت معركة كانة . وجاء انتصارها . فتغلب بالمجلس القرطاجني جانب الحرب وقرران يمد حنبعل باربعة آلاف رجل . ليس الا .

التغلب الروماني

ما كان حنبعل معتمدا على امداد قرطاجنة له . ويعلم انه ان لم يعمل لنفسه كان مصيره الهلاك . فاخذ وهو مخيم بجنوب ايطاليا . يفاوض اعداء روما ويعقد معهم اتفاقات . وجنده الف تلك الراحة اثر النصب الكبير . فانغمس في الموبقات واخلد الى الترف والشهوات .

وعقد حنبعل معاهدة مع فليب ملك مقدونيا . يلتزم فيها هذا الملك بارسال قوتين في البر والبحر لاعانة حنبعل وتحطيم رومة .

وكان القرطاجنيون قد استعادوا في تلك الظروف بعض المراكز والجزر التي فقدوها بالبحر المتوسط . وبثوا السعاة يوقدون نار الفتنة في البلاد التي بقيت تابعة لرومة . الا انها مجهودات خائبة . واعمال لم تات باية نتيجة . فاضطر القرطاجنيون الى اخلاء سردينيا . وتوالت عليهم المصائب والنكبات .

فلقد سافر حنون [1] من اسبانيا بنجدة الى حنبعل . لكن الاسطول الروماني تعرض له وقتله وشتت جنده . ونهض شقيق حنبعل من اسبانيا لنجدة اخيه بجند . لكن الرومانيين كمنوا له وقتلوه . ورموا براسه في المعسكر القرطاجني . فانقطع بذلك كل املهم في النجدة . ثم ارسل فليب المقدوني عمارة بحرية تحمل جندا كبيرا حسب الاتفاق . فلقيها كذلك الاسطول الروماني ودمرها . وتراخى فليب عن اعادة الكرة . وكان يستطيع ذلك . فهاجمه الرومان في عقر وطنه .

وفي سنة 212 استولى الرومانيون على مدينة سرقوسة . رغم الدفاع الباهر الذي

(1) هو غير حنون البحار . وغير حنون الملقب بالاكبر الذي كان صاحب سلطة عظيمة بقرطاجنة وكان معارضا كل المعارضة لاعمال حنيبعل . لانه من عائلة برقة التي تنازع السلطة لعائلة حنون .

قام به اهلها والقرطاجنيون . ورغم الاختراعات العجيبة التي اوجدها العالم ارخميدس [2]، لمقاومة الرومان .

واخذ حنبعل يفقد آماله في الانتصار . بينما عادت الثقة والاطمئنان الى نفوس الرومانيين . وقد ظل مجلسهم الأعلى محافظا على ثباته التام في أحصر الظروف واشدها حرجا .

الحرب بافريقيا

ارسل الرومانيون قوة الى اسبانيا . دمرت القرطاجنيين واستولت على كامل البلاد الاسبانية . وظل حنبعل محصورا بالجنوب الايطالي . لا ينتظر مددا ولا يجد بين يديه قوة كافية .

وعزم عندئذ القائد شيبيو الافريقي [1] على السفر الى ارض قرطاجنة . لاعطائها الضربة الحاسمة في ارضها . فركب البحر في ثلاثين الفا . واشرع الى افريقيا . فنزل باقليبيا على بعد 100 كيلوميتر من قرطاجنة .

---

(1) وهو من اعظم علماء العالم . ولد بسرقوسة عام 287 وله اختراعات كبيرة، ويروي الاقدمون انه اخترع مرآة تجمع نور الشمس وتلقيه على مراكب الرومان فتحرقها . وله غير ذلك اختراعات اخرى صد بها الرومانيين ثلاثة اعوام عن احتلال وطنه . وهو الذي اكتشف الثقل النوعي . وذلك ان الملك هيارون أوصى احد الصياغين ان يصيغ له تاجا من الذهب . فلما صاغه تطرق الملك الريب وظن ان الصائغ غش الذهب بمعدن آخر . وطلب الى ارخميدس ان يجد له مقدار الخلط بدون ان يفسد التاج . فاخذ هذا يتدبر في الأمر ولا يجد له حلا . وكان ذات يوم يستحم ببركة . ففطن الى أن اعضاءه يتناقص وزنها في وسط الماء . بدا له من ذلك بصيص النور . فوجد هذه القاعدة التي ينتفع بها العالم : ان كل جسم يوضع في وسط مائع يتحمل من هذا المائع ضغطا عموديا متجها من الأسفل الى الأعلى . ويقدر ذلك الضغط بمقدار المائع الذي حل الجسم محله . ثم خرج من بركته وهو يصيح : وجدت وجدت « وامكنه معرفة الغش بعد اكتشافه للثقل النوعي .

(2) وهو من اشهر قواد الرومان ولد عام 234 . ولقد اتهمه الرومانيون فيما بعد باختلاس اموال الدولة . وعبثا ذكرهم في دفاعه عن نفسه بانتصاره على قرطاجة . فحكم عليه بالنفي . ومات في منفاه بمدينة لترنتة عام 183 وأوصى بان يكتب على قبره : لن تنال رفاتي ايها الوطن الجحود .

واليوم وقد نقلت الحرب الى افريقيا . اصبح للبربر اهمية عظيمة جدا في المعركة . حيث ان الحرب ستدور في بلادهم . والنصر سيكون لمن ينضمون اليه . فلننظر الى ملوك البربر يومئذ وماذا كانت اعمالهم .

تذكرون ان عملكرض قد نال نصره على الثوار باعانة نرهفاس الذي صار اميرا على نوميديا الشرقية . ولما مات ترك ابنه غولا اميرا عليها . ولغولا هذا ولد اسمه ماسنيسا . اما نوميديا الغربية فكان عليها الملك سيفاكس .

اما غولا فقد كان مواليا لقرطاجنة وهو جارها وحليفها . واما سيفاكس فقد مال الى روما التي وعدته باستقلاله وجمع سلطة البربر في يده . ورأى ان يبدأ بجمع تلك السلطة . فجهز قواته وارسلها ضد غولا .

عندئذ اصمد غولا جندا لمقارعة خصمه تحت قيادة ولده ماسنيسا . وكان له يومئذ 17 عاما . فتقاتل الفريقان قتالاعنيفا . ونال ماسنيسا النصر . وشرد سيفاكس الى موريتانيا . واصبح غولا ملكا مطلقا على جميع نوميديا .

ثم ذهب ماسنيسا مع الجند القرطاجني الى ايطاليا . وابلى تحت راية حنبعل البلاء الحسن .

لكن والده غولا مات . وورث الملك عمه وهو شيخ ضعيف . وعوض ان تتولى قرطاجنة الدفاع عن مصالح حليفها مكثت ساكنة لا تبدي ولا تعيد . فثار الثوار على العم الواهن القوي . وكثر الطامعون في ملك نوميديا . وقرطاجنة صامتة . اذاك قدم ماسنيسا ليرجع ملك ابيه . وليطرد الامير الغاصب لوكوماسس عن عرش سيرتا وليحقق غايته في استقلال بلاد البربر فذهب توا (عام 206) الى الملك بوكار بموريطانيا فأمده بنجدة ضعيفة تمكن بها من الوصول الى وطنه نوميديا . وهناك انضم اليه جمهور كبير من البربر . فاطردوا الامير الغاصب والتجأ هذا الى سيفاكس . فامده بجند واعاده لحرب ماسنيسا واقترح هذا على خصمه ان يقتسم معه البلاد فقبل . واصبح ماسنيسا اميرا على نصف نوميديا . واستمالت قرطاجنة سيفاكس اليها . وزوجة القائد ازربعل بنته التي كانت خطيبة ماسنيسا . فاصبح لها ناصرا عظيما .

فهاجم ماسنيسا بشدة واحتل ارضه وشرده عام 205 . فانهزم مع بعض انصاره الى الجبال قرب قرطاجنة . وجمع حوله جموعا واصبح يشن الغارة على المدينة العظيمة . فارسل الملك سيفاكس ضده جندا . فشردوا جموعه وانهزم وهو جريح جرحا بليغا . ووضعه بعض اتباعه في كهف مختف وسهروا عليه حتى شفي . وكان سيفاكس يظنه قد مات .

وما كاد يشفى من مرضه ويستطيع ركوب جواده حتى نهض الى نوميديا . فالتف حوله من جديد بعض اشتات البربر ، لكن فرمينا ابن سيفاكس هزمه من جديد ففر الى الجنوب ينتظر فرصة اخرى . ودخل سيفاكس مدينة سيرتا . «قسنطينة» عام 204 فانتصب بها ملكا على نوميديا .

فلما نزل شيبيو بافريقيا . اسرع اليه ماسنيسا . ومعه بعض انصاره ووعده بالاعانة والتأييد .

حصلت بين الفريقين معركة اولى . دارت فيها الدائرة على القرطاجنيين واحلافهم الرومانيون . ووقفوا تحت جدران قرطاجنة واعانهم على ذلك ماسنيسا ورجاله .

هنالك تذكرت العاصمة وتذكر رجالها حنبعل . وراوا الخطر مخيما عليهم فارسلوا يستقدمونه .

وما اكبر غم حنبعل . وما اشد المه . لما دعاه داعي الوطن لترك آماله وأمانيه . ووضع حد للصفحة التي ابتداها منذ سنين . والعدول عدولا نهائيا عن محو رومة وهو واقف تجاهها . نسي ان وطنه هو الذي سبب له الخيبة بعدم امداده اياه وتركه وشانه . نسي ان رجال وطنه هم الذين عرقلوا اعماله حسدا منهم . نسي ان رجال وطنه لو امدوه وقت الحاجة لكانوا في تلك الساعة يحتفلون بدخولهم الى رومة . لا يشتغلون بالدفاع عن نفس قرطاجنة . كل ذلك نسيه القائد حنبعل . عندما ارتسمت امامه كلمة هائلة . هي نار تاكل القلوب : الوطن في خطر !

وهل لوطني صادق ان يستمع لهاتيك الكلمة . ولا يضحي ولا يخاطر ولا يندفع تجاه الاهوال وجها لوجه ؟

ركب حنبعل البحر بجنوده . وبعد ايام نزل بمدينة لمطة . ورأى تراب وطنه بعد غياب 36 عاما . واسرع لملاقاة الجند الروماني . فتقابل الفريقان بجاما . قرب مدينة الكاف .

نهاية سيفاكس

في تلك الاثناء كان ماسنيسا يلتهب غيظا على عدوه الملك سيفاكس الذي اذاقه مرارة الهزيمة مرارا . فاخذ الاذن من شبيو ، وجمع جنده وهاجم خصمه الذي يقود قوات بربرية كبيرة .

فتقدم اليه سيفاكس . وتقابل البربريان في ساحة الوغى . وكاد النصر يتم لسيفاكس . لولا ان كبى به فرسه . فسقط على الأرض جريحا . واحدق به خصومه فاقتادوه .

اداك ذهب ماسنيسا مسرعا الى مدينة سيرتا . عاصمة نوميديا . وعرش الملك الأسير فتصمم أهلها على مقاومته . لكنه اظهر لهم سيفاكس ملكهم يرسف في قيوده . فتولاهم الجزع . واغتنم تلك الفرصة فدخل المدينة . واختطف الملكة سوفو نيسب التي كانت خطيبته ثم زوجها ابوها لسيفاكس . ورجع يقتاد وراءه . الملك الاسير والملكة البائسة . وصمم على ان يتزوجها . لكن شيبيوابي عليه ذلك راغبا ان ياخذها معه لرومه حتى يراها الشعب مقيدة يوم الاحتفال بنصره .

وبينما الرجلان يتخاصمان الملكة . كانت هذه قد ختمت صفحة حياتها بجرعة سم تجرعتها . وموت الشرف خير من حياة المذلة والعار .

اما الملك فقد سير به الى روما وقضى بقية ايامه بائسا يائسا حزينا الى ان ادركه الموت سنة 201

وهكذا انتهى امر الملك سيفاكس . وكان سقوطه اكبر ضربة اصابت قرطاجنة التي كانت تعتمد عليه كل الاعتماد .

معركة جاما الحاسمة

طلب حنبعل . عندما خيم بجامة . مقابلة قائد الرومان شيبيو . سعيا لوضع حد الى الحرب . وعقد اتفاق شريف بين الطرفين . وتقابلا . لكن النتيجة كانت ان فضل حنبعل اقتحام معركة ولويكون مآلها الانكسار على قبول ما طلبه شيبيو من المطالب

وفي الغد ترتب الجندان واستعدا للكفاح . وكان الجند الروماني منظما كما يلي : القلب مؤلف من ثلاثة خطوط من المشاة (رجال الليجيون)، والميمنة من فرسان ايطاليا . والميسرة من فرسان ماسنيسا البربري . وعدد الجميع 22000 الفاً .

اما نظام الجند القرطاجني فكان مؤلفا من طليعة بها 80 فيلا . ووراءها ثلاثة صفوف من المشاة . في الصف الأول المستاجرون الاروبيون . وفي الثاني المقاتلون الافريقيون . وفي الثالث نخبة الجنود التي كانت بايطاليا مع حنبعل . والميمنة مؤلفة من فرسان البربر الوطنيين . والميسرة من فرسان البربر المعاونين .

ابتدات المعركة بهجوم الفيلة القرطاجنية . الا انها انهزمت وتراجعت فزعا من اصوات مزامير الرومانيين . واخترقت صفوف المشاة . فاختل نظامهم وهجمت ميمنة الرومان الراكبة على فرسان الميسرة القرطاجنية فدحرتها . وعندئذ تقدمت المشاة من الطرفين نحو الميدان . وكل فريق يصيح صياحه الحربي الخاص . واحتدم النزال . الا ان الخط الثاني القرطاجني لم يعن الخط الاول اثناء الملحمة . وبقي ملازما للجمود . فغضب رجال الخط الأول وانحنوا يضربون رجال الخط الثاني وفي تلك الاثناء وصل رجال الخط الثالث الروماني الى الميدان . فاستؤصلت شافة الخطين القرطاجنيين المتقاتلين وهرب من بقي منهما ملتجئا الى الخط الثالث . وفيه حنبعل . وخشى هذا ان يسود الخلل في خطة ذلك . فامر جنوده فاعترضت الفارين باسنة الرماح فالتجاوا الى الجناحين .

وكان شيبيو اثناء هذا . قد امر جنوده بالرجوع وحمل الجرحى والاموات . ثم رتب الجيش . وارسله كتلة واحدة ضد الصف الثالث القرطاجني . لكن قدماء الجنود قد تحملوا تلك الصدمة بثبات كبير . وقاوموها اكبر مقاومة . وكادوا ينتصرون . الا أن فرسان ميمنة الرومانيين وميسرتهم تمكنت من دحر الجناحين القرطاجنيين . وهاجموا

الصف الثالث من خلفه . فاصبح ضمن دائرة من الاعداء . وكان بذلك فصل الخطاب .

وتمكن حنبعل وبعض رجاله من الفوز بانفسهم اثر هذا الانكسار . وتم لشيبيو هذا الانتصار الحاسم العظيم . عام 202 .

شروط الصلـح

اثر هذا الانكسار اضطرت قرطاجنة ان تطلب الصلح من اعدائها . واتفق الفريقان عام 201 على هذه الشروط :

* تسلم قرطاجنة لرومة كل املاكها خارج التراب الوطني .

* تدفع قرطاجنة لرومة غرامة حربية قدرها10000 تالون (56 مليون فرنكا) منجمة عن 50 عاما .

* تلتزم قرطاجنة بان ترجع للملك ماسنيسا البربري كل ماكان يماكه اسلافه من التراب وتعترف به ملكا على نوميديا وتدفع له غرامة حربية .

* لا يمكن لقرطاجنة ان تعلن اي حرب الا بعد اخذ الاذن من رومة

* تسلم من قرطاجنة 100 من اعيانها الى الرومان بصفة ضمان لاتمام شروط الصلح .

وصادق مجلس روما على المعاهدة حالا . واستسلم شيبيو من قرطاجنة 500 سفينة احرقها حالا بالمرسى . ثم استلم اللاجئين الرومانيين وهم نحو 4000 رجل واماتهم بعد التعذيب والتنكيل .

حنبعل متصرف مطلق

التجأ الى سوسة حنبعل اثر انكساره . ومن هنالك رجع الى قرطاجنة . ولما تقدمت المعاهدة امام المجلس ليصادق عليها . تكلم احد الاعضاء ضد قبولها فقام له حنبعل . وقد اشتد به الغيظ . ورماه من مقعده على الأرض ثم اعتذر عن ذلك

الى زملائه . قائلا ان غيابه عن وطنه 36 عاما قد انساه تقاليد المجلس ونظامه . وانه غضب من رؤية قرطاجني لا يشكر الآلهة التي منت على قرطاجنة بمثل ذلك الصلح الخفيف نظرا لعظمة انكسارها . وفقدها لكل قوة وحول .

ولا ريب ان حنبعل كان يقول في نفسه عندما راى الرجل على الأرض : «يا لكم من اغبياء . خذلتموني عندما كنت على ابواب رومة . فلما تم لنا الانكسار وخسرنا كل شيء ولم تبق بايدينا اي قوة تريدون استئناف الحرب ! » .

اراد حنبعل بعدئذ ان يطفي نار الضغائن الداخلية . لكن تلك النار لم تزد الا اشتعالا .

وقد كان بقرطاجنة يومئذ حزبان عظيمان : اولهما الحزب الارستوقراطي حزب الاشراف . وعلى راسه افراد عائلة حنون . وثانيهما الحزب الديمقراطي حزب الشعب وعلى راسه افراد عائلة برقة . وكبير هذه العائلة كان يومئذ حنبعل .

وكانت عائلة حنون وحزبه يسعون كل السعي لتحطيم نفوذ عائلة برقة ومحقها . ولو ادى ذلك الى محق الوطن نفسه . وبتدأوا يومئذ دسائسهم . واخذوا يتهمون حنبعل بالخيانة لعدم زحفه على رومة . ويدسون له الدسائس قصد اصدار حكم المجلس عليه .

وراى حنبعل ان الدسائس ستطول اذا لم يقع بترها . وان هذه الفتنة السياسية لا تزيد الوطن الا خرابا ودمارا . فجمع جموعه من رجال الشعب واستولى بالقوة على زمام السلطة بقرطاجنة . وانتصب بالعاصمة البونيقية متصرفا مطلقا . عام 195 ﻫ

وكانت نتيجة ادارته تلك انه اصلح المالية . واعاد تنظيم الجند . وسلك مع البربر سياسة لين ورفق وتسامح جمعت حول قرطاجنة قلوبهم . ثم اخذ يسعى في تكوين محالفات جديدة . وتجهيز عدده . لاعادة الحرب . وللاخذ بالثار .

نهاية حنبعل

لكن حزب الاشراف وصلت به النذالة الى انذار روما بالخطر واعلامها باستعداد حنبعل . فارسل الرومانيون عدة وفود الى قرطاجنة لاسباب واهية مختلفة . واتفقت

تلك الوفود مع الانذال الاشراف ورجالهم على ان يلقوا القبض على حنبعل ويقع اقتياده لرومة . وكاد الامر يتم . لولا تنبه البطل العظيم لهذه المساعي . وادراكه ان مقاومته واعماله في وسط كهذا الوسط لن تجديه نفعا . فركب البحر ليلا . وغادر وطنه الناكر الجميل .

ذهب حنبعل الى انطيوخس ملك سوريا . وكان يحارب الرومان . لكن الرومانيين انتصروا فذهب الى ملك بتينيا (ازميد بآسيا الصغرى) بروسياس . واخذ يحثه على محاربة روما . لكن هذه ارسلت للملك رسلها . تطلب منه حالا ان يسلم اليها حنبعل . واوجس الملك في نفسه خيفة فعزم على تسليم ضيفه .

راى حنبعل ان الابواب قد اوصدت في وجهه . وانه لم يبق امامه وجه للخلاص وانف المسكين ان يقضي بقية ايامه اسيرا عند رومة . وكان يطمع ان يزيل من الارض آثارها . فاخذ خاتمه . وقد كان خبا فيه منذ امد بعيد قطرات من السم الفتاك لمثل تلك الساعة . وقال : ليامن الرومان شر الفزع الذي سببه لهم هذا الشيخ الهرم وامتص تلك القطرات ودخل في حكم التاريخ . وهكذا انتهى حنبعل العظيم .

الدول البربرية

راينا بلاد المغرب عند ما قدمت اليها الجاليات الفنيقية . وليس بها نظام ولا ممالك ولا سياسة ولا اتحاد . وكانت لها ملوك صغارهم في الحقيقة رؤساء قبائل لا يعرفون من الادارة ولا من النظام شيئا .

انتصبت قرطاجنة . وارتقت . وانتشرت . وامتد نفوذها على سائر الانحاء ولقد كان نفوذا ممدنا . وكان لذلك النفوذ تاثير صالح على حياة البربر . فبفضله تطوروا . وبفضله اخذوا ما انتجته المدنية من سياسة ونظام .

اصبحت بلاد المغرب . بعد انتهاء هذه الوقائع . وقائع الحرب البونيقية الثانية . ذات ممالك بربرية مستقلة . عن قرطاجنة اخذت نظامها . وبنور المدنية القرطاجنية تهتدي في سيرها .

اصبح في المغرب ثلاث دول بربرية عظيمة : اولها مملكة المور وهي تشمل بلاد مراكش الحالية . ويحدها نهر الملوية . وثانيها مملكة المازويسيل وتشمل كامل

بلاد الجزائر الحالية تقريبا . وهي التي كان عليها الملك سيفاكس نصير قرطاجنة ومؤيدها . وثالثها مملكة الماسيل وهي تمتد في بلاد نوميديا . غربي المملكة التونسية وشرقي مقاطعة قسنطينة .

وعند انتهاء الحروب البونيقية الثانية . كان ملوك البربر في الممالك الثلاثة هم : بوكار بالمملكة الأولى . وفارمينا بالمملكة الثانية . وهو خاضع «لنفوذ» رومة . وماسنيسا بالمملكة الثالثة . مملكة نوميديا . جارة قرطاجنة .

ماسنيسا

وكان ماسنيسا اعظم ملوك البربرشانا . واكبرهم سلطانا .ولقد راينا في الصحائف الماضية كيف كان جهاده للوصول الى عرشه . وانه لمن ابطال العنصر البربري . ومن اعظم رجال هذه البلاد . قال عنه الاستاذ مومسن : كان ماسنيسا روح الحركة الهائلة التي قادت الشعب في طريق التطور. وانه لاحسن ملوك عصره واسعدهم جميعا . «وقال عنه بواسيار : كان ماسنيسا هو المؤسس الفعلي لمملكة نوميديا . وكان حقيقة رجلا عظيما.» .

نظر ماسنيسا نظرة في بلاد المغرب . وشاهد ما هي عليه . فاختط لنفسه خطة سار عليها طول حياته . وبذل في سبيلها كل ما يستطيع بشر ان يبذله من القوى العقلية والحسية . وانما تلك الخطة هي تاسيس مملكة بربرية عظيمة . تمتد من شرقي المملكة التونسية . الى سواحل المحيط الاطلسي .

وكان لين العريكة لطيف المعاشرة . يحب الاطفال حبا جما . ويجمع في قصره بمدينة سيرتا(قسنطينة) جموع الاعيان وكبار الدولة . يقيم لهم الحفلات الرائقة . ويعودهم على حياة الاجتماع والتآلف في البلاط الملوكي . ويدير ممالكه حسب سياسة مقررة لديه منظمة . فلا يدع اضطرابا ولا يتغاضى عن مظلمة .

ثم نظم جيشا وطنيا عتيدا . وانشأ اسطولا قويا . وضرب باسمه النقود الوطنية . وبذل جهده واقصى جهده لتنشيط الزراعة . وتنمية التجارة . وبث اللغة القرطاجنية بين سائر الطبقات . وكان في سياسته يخطب ود اليونان . ويتقرب من رومة .



8 ـــ 9 ـــ 10 ـــ 11 ـــ 13 ـــ نقد الملك ماسنيسا وعليها رسمه .

ويبث مدنية قرطاجنة . اما تقربه من رومة فلانه يرى فيها معينا على تنفيذ خطته . اذ من مصلحتها تحطيم ملك قرطاجنة .

اما صفاته الشخصية . فقد كان هيكلا بشريا . له قوة هائلة . وعزيمة دونها متانة الحديد وصلابة الفولاد . وقد له ولد وهو في سن السادسة والثمانين وعاش متمتعا بكل قواه العقلية والبدنية فوق المائة عاما .

حرب ماسنيسا وقرطاجنة

اكمل ماسنيسا معداته الحربية . وروما تحثه على اهلاك قرطاجنة وتحرضه على الحرب . فجمع جموعه وهجم بقواته على التراب القرطاجني واحتل كامل الجنوب التونسي .

وانك لازلت تذكر ان روما قد اشترطت على قرطاجنة انها لا تعلن حربا الا بعد اخذ الاذن منها . فما كانت قرطاجنة لتجرأ على محاربة ماسنيسا والدفاع عن حوزتها . وارسلت الرسل الى روما تشتكي من الملك البربري وتطلب الاذن لها بحربه . فقررت روما ارسال لجنة بحث تدرس المسالة . وجاءت اللجنة الى قرطاجنة تحت رئاسة قاطون الحكيم [1] .

واقترحت ان يكون حكمها نهائيا يخضع له الملك البربري وقرطاجنة . اما الأول فقبل ذلك لما يعلمه من نوايا رومة . واما قرطاجنة فرفضت وقالت ان اللجنة انما هي لجنة بحث . لا لجنة تحكيم .

شاهد قاطون بكل شره وطمع ثروة قرطاجنة . وما هي عليه من العظمة والجلال . وقال في نفسه لئن تركنا هذه المدينة قائمة فلابد ان يأتي يوم تنقلب فيه علينا . وما ذكر حنبعل عنا ببعيد . ورجع لبلاده يضمر نحو قرطاجنة شر النوايا . ثم وقف امام السينات خطيبا . واخذ يعدد ما شاهده بالعاصمة العدوة من التجهيز الحربي . ومن الثروة المادية . ومن الاسطول . وحذر المجلس سوء مغبة التجهيز القرطاجني . ثم

(1) من اكبر ساسة الرومان واعظم خطبائهم . ولد عام 237 وتوفي عام 142 ا. وترك كتابا في علم الزراعة يشهد بسمو مداركه وقوة علمه .

ضرب على الوتر الاستعماري وتر الطمع الاشعبي . واخرج من كمه بعض ثمرات من التين الغليظ وصاح برفاقه : ان البلاد الخصبة التي انبتت هذه الثمرات . لاتبعد عنا الا مسيرة ثلاثة ايام . فاعطوا حرية العمل لماسنيسا . فانه يجب تدمير قرطاجنة ! واخذ يكرر هذه الجملة الاخيرة (Delenda est Carthage) في خاتمة كل خطاب يلقيه في اي موضوع من المواضيع . حتى صارت تلك الجملة مثلا لاتينياً .

علم ماسنيسا ان لا حرج عليه ولا تثريب من محاربة قرطاجنة . وان روما لا تعارضه اذ مصلحتها تحطيم عدوتها . فدفع جنده مرة اخرى . واحتل اواسط المملكة التونسية . ولما ايقنت قرطاجنة تصميم اعدائها على محقها اخرجت جندها للمقاومة . لكن النصر كان لماسينسا في كل مواطن النزال وكان يهاجم اعداءه بنفسه وعمره يومئذ 88 عاماً . واستمرت الوقائع متوالية بين الجانبين عام 150 ق . م .

الحرب البونيقيــة الثالثة

(اسبابهــا)

صممت روما على محق قرطاجنة . واغتنمت لذلك فرصة واهية . هي التي كونتها . وهي ان قرطاجنة نكثت معاهدة عام 201 اذ حاربت ماسنيسا بدون اذنها . فاعلنت الحرب على عدوتها . الحرب النهائية . حرب الخراب والوحشية والدمار .

ولهذه الحرب سببان عظيمان : الأول ـ اقتناع المجلس بحجج قاطون . واعتقاده ان بقاء قرطاجنة قائمة الاساس . انما هو خطر مستمر يهدد الامبراطورية الرومانية . فيجب تخريب عاصمة العدو تخريبا تاما . والقضاء عليها القضاء الاخير

السبب الثاني : خوف روما من ماسنيسا . وخشيتها من استيلاء الملك البربري على تلك المدينة الزاهرة . فيؤسس امبراطورية بربرية بكامل . بلاد المغرب . وفي ذلك مضرة كبرى بمصالح الرومان . فلو تركت ماسنيسا يحارب قرطاجنة بدون ان تتدخل هي . لتم له الامر . وخسرت هي الصفقة . وصارت تجاهها قرطاجنة اعظم من التي كانت تخافها .

فلهذين السببين . صممت على محو المدينة . وازالة آثارها . والانتصاب في البلاد على انقاضها .

الحالة بقرطاجنة

كان بقرطاجنة يومئذ ثلاثة احزاب : حزب الاشراف وهو الذي تولى الامر بعد خروج حنبعل . وحزب الشعب الذي اصبح مضطهدا . وحزب ماسنيسا وهو الذي بوده انتصار الملك البربري ويستعد لاقتباله بكل سرور.

فالحزب الأول كان يميل لرومة ويود ان يظهر لها كل تسامح . والثاني يريد الوقوف امامها موقف المستقبل الشريف لا يناوى ولا يغاضب . والثالث يريد ان يسلم الحكم لماسيسنا باي صفة كانت .

فلما اشتدت الازمة بين روما وقرطاجنة . هاج الاحساس الوطني في الشعب . فاسقط حكومة الاشراف . ونصب حكومة وطنية شعبية . يرأسها جيسكون من عائلة برقة . واسرع هذا بتشكيل الجند الوطني من القرطاجنيين والبربر ووضع على راس هؤلاء عريو برزان بن الملك سيفاكس . ثم وقع القاء القبض على اعضاء حزب ماسنيسا ونفوا خارج تراب قرطاجنة .

الوقائع الأولى

غادر الجند الروماني ارض ايطاليا . تحت رئاسة القنصلين ماريوس ومانيلوس . ونزل بمدينة . اوتيكة عام 149 .فاستسلمت له طوعا . فساد الانزعاج بقرطاجنة . وعم بها القلق والرعب فثار الاشراف على حزب الشعب وارادوا قتل القائد ازربعل ورجال الحكومة . فقتلوهم ونجا ازربعل . ثم ارسلوا يطلبون حلم روما ورحمتها ويسالونها الصلح . مهما كان الصلح مشينا . فطلب ماريوس ان تسلم اليه قرطاجنة كامل اسطولها . وكل سلاحها . فامتثلوا وسلموا الاسطول . واعطوا 200000 سلاح . و300 آلة حربية .

ولما اصبح القرطاجنيون عزلا من كل سلاح . طلب اليهم الرومانيون ان يغادروا مدينة قرطاجنة اجمعين . ويبتنوا لانفسهم مدينة اخرى . تبعد عن الأولى 15 كيلوميتر. ولا يحق لهم ان يبتنوا حولها سورا اوجدارا .

هنالك شاهد القرطاجنيون الموت وجها لوجه . وايقنوا أن اعداءهم صمموا

هذه المرة على محققهم المحق الاخير . ففضلوا الموت الشريف على العيش حياة هي اشقى من الموت . وصمموا على الدفاع عن حوزتهم . دفاع اليائس المستميت . فقتلوا كل الاشراف واحباب روما . وسلموا القيادة لازربعل .

كانت قرطاجنة عظيمة في حياتها . وكان موت قرطاجنة لائقا بعظمتها .

فلقد كتب القرطاجنيون . في آخر يوم من ايام حياتهم . في آخر سنوات القرون التسعة التي قضوها . اجمل صفحات الدفاع الوطني . وتركوا اطيب ذكر لامة ماتت عن آخرها . والسيف في يدها . ولم تذق ذل تسلط الاعداء .

اشتغل القرطاجنيون كلهم اجمعون باعداد معدات الدفاع الوطني . بهمة نادرة . وعزيمة صادقة . وانما هي التضحية مجسمة . تراها في اولئك القوم . والشيوخ يعملون مع الشبان يدا في يد لفائدة الدفاع . وابتناء الاسطول وتجهيز السلاح . ليلا ونهارا . في كل مكان .

ونساء قرطاجنة وبناتها . والهف قلبي عليهن . كن يتباهين في سبيل الدفاع الوطني . بقطع شعورهن . الغزيرة وتقديمها للعاملين . لتجعل حبالا لشد السفن ولم يذكر التاريخ . ولم ترو الاساطير منظرا هو اسمى واجل واشد تاثيرا من منظر غانية . تمزق شعرها . وهو تاج جمالها . وتقدمه ليفتل حبلا في سبيل الدفاع عن الوطن . ثم تعمل كل الاعمال الحربية مع الرجال .

وانساء قرطاجنة الباسلات ! ليحفظ التاريخ ذكراكن الى الابد ! ولتكن ممجدأت . في قلوب من يدرك للتضحية قيمتها . ومن يعرف للوطن كل حقوقه .

قام اهل قرطاجنة للدفاع قومة رجل واحد . والتف حول القائد ازربعل 70000 رجل عدى من في الاسوار . ينتظرون النصر وانقاذ الوطن او الموت جميعا فداه

وتولى قيادة الجند الروماني شيبيو الصغير . وتقدم نحوها يجر وراءه الموت . واضطر لنصب الحصار عليها . ولم يعنه ماسنيسا على ذلك . لانه كان يريد ان يستولى بنفسه على قرطاجنة .

قرطاجنة تحت الحصار

هاجمها شيبيو اول مرة بعنف . وتمكن من احتلال ربض ماكازا بعد ان فتح له احد الخونة بابا . لكنه اضطران ينسحب من ذلك الربض بعد احراقه .

وعندئذ نصب الحصار بصفة فنية فعالة . فقطع البرزخ الذي يصل قرطاجنة بالارض بحقير عميق . وخلفه عام 147 في القيادة شيبيو اميليان . فاخذ يضيق الحصار برا وبحرا . وشيد امام المرسى حاجزا منيعا يمنع دخول السفن اليه وخروجها منه . وتبلغ قاعدة ذلك السد الهائل 90 قدما !

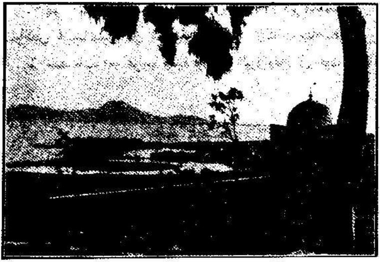
وكان مرسى قرطاجنة يتركب من قسمين : المرسى التجاري وهو على البحر محاط باسوار وجدران منيعة . وفي داخل ذلك المرسى يوجد القسم الثاني وهو المرسى الحربي . وهذا المرسى عبارة عن حوض فسيح يسع 220 سفينة حربية . وفي وسطه جزيرة صغيرة هي مركز القيادة البحرية ومعمل اصلاح السفن وكل ما يتعلق بالعمارة البحرية والسلاح . وتدعى تلك الجزيرة «القطن» ذلك هو المرسى الذي قطعه شيبيو عن البحر . ودفن فيه بقايا الاسطول القرطاجني . وما اشد دهشته وما اكبر تعجبه عندما شاهد ذات يوم في عرض البحر اسطولا قرطاجنيا كبيرا . بينما هو مشدد الحصار على المرسى .

فمن اين خرج هذا الاسطول يا ترى ؟

لقد خرج من معبر المرسى الجديد ! ذلك ان القرطاجنيين قاموا وهم تحت الحصار . بعمل جسيم وبذلوا في سبيل الدفاع مجهودا هائلا . فحفروا معبرا جديدا وراء الاسوار . يصل مرساهم بالبحر . واخرجوا اسطولهم ليحاول فك الحصار .

واي اسطول ذلك الاسطول ! لقد شيد اكثره ابان الحصار . ووضع في ابتنائه آخر آمال القوم في الانتصار . فكانت اخشابه من ابواب المنازل واثاثها . وشراعاته ومراسنه من شعور بنات قرطاجنة ونسائها . وما من قرطاجني الا بذل في سبيل ذلك الاسطول شيئا . فكان فلذة كبد المدينة . وكان ثمرة جدها وكدها المتواصل . وكان يمثل اجلى تمثيل عزيمتها وروح وطنيتها وتضحيتها .

لكن ذلك الاسطول لم يستطع ان يفعل شيئا يذكر ضد العمارة الرومانية ولم



بقايا مرسى قرطاجنة العتيق

محق اهله المدافعين . وبعد تكبد اليم الخسائر . واستمر ذلك ستة ايام وست ليال . ولما كان اليوم السابع . دخلت قرطاجنة العظيمة في حكم التاريخ .

بقي القائد ازربعل حيا بعد ممات رجاله . فالتجا الى هيكل قديم . ومعه رجال من قومه . وزوجته وولداه . ونحو الف من الفارين الرومانيين . وقد فقدوا كل امل من النجاة .

فتولى القائد الصغار في آخر ساعة . وسلم نفسه وافضيحتاه للرومان . وشاهد **القرطاجنيون ذلك فاوقدوا النيران في الهيكل . وماتوا .**

النار تلتهم الاسوار حولهم	**والسيف يحصد منهم كل جبار**
راوا طريق نجاة فتحت لهم	**وانها لطريق الخزي والعار**
والحر لا يرتضي ذلا ومسكنة	**ففضلوا الموت بين السيف والنار**

وكانت زوجة صدربعل قبل موتها . قد وقفت تجاه زوجها على درج الهيكل . وزوجها بين يدي الرومان . وحملقت فيه بعينين جمعتا كل الغيظ القرطاجني . وصاحت به : اذهب ايها النذل ذليلا . ليفتخر المنتصرون باسرك ! ثم خنقت بيديها فلذتي كبدها . والقت بهما . والقت بنفسها اثرهما في وسط اللهيب . النار ولا العار . وهكذا كان ختام آخر صفحة في التاريخ القرطاجني الكنعاني .

انتهاء المدينة

ورد الاذن من رومة باحراق المدينة . فاوقد الرومانيون بها النيران . وقضى من بقي فيها نحبهم . الا الاقل . بين النار والحديد . ودام الحريق نصف شهر كامل . ولما انطفات النيران . لم يبق في تلك المدينة سوى 25 الف رجل اغلبهم مشوه وجريح . و30 الف امراة . بيعوا كلهم بيع الرقيق . وتداولهم الجند . وكان في المدينة قبل ذلك نحو 700 الفا من السكان !

فما اعظمك يا مدينة روما ! وما اشد رحمتك ايها الطمع الاستعماري !

ولم يكف ذلك روما . فارسلت امرا بتحطيم ما بقي في المدينة قائما بعد الحريق. فاعمل فيها المعول . وصارت بعد حين قاعا صفصفا ارضها الرماد والحجارة السوداء

والعظام البشرية المتكلسة . واجري فيها المحراث . واتى احد رجال الدين الوثني . ولعن باسم الآلهة كل من يسكنها من جديد .

وشاهد شيبيو قائد الرومان تلك الامور . وبكى .....

نظرة في اسباب الخراب

لنلق الآن نظرة بحث عميق . لننظر في اسباب هذا السقوط الهائل وهذا الاضمحلال . فما كانت الحروب البونيقية الا الوسيلة لذلك . اما الاسباب الأصلية تلك التي جعلت قرطاجنة تغلب في تلك الحروب . ثم تقهر . ثم تموت وتضمحل . فهي خمسة . يمكن لنا ان نستنتجها من جملة التاريخ القرطاجني .

السبب الأول ـ سوء سياسة قرطاجنة مع رعاياها البربر . فانها اثقلت كاهلهم بالضرائب . وعاقبتهم بصرامة على اقل الهفوات . وسلكت معهم سياسة القسوة والعنف . وانها سياسة خرقاء . توغر الصدور وتنشيء الاحقاد . وان كان البربر مدينين لقرطاجنة بما علمتهم اياه . وبما لقنتهم من مبادي المدنية والحياة الاجتماعية . فقد كان لهم العذر في التذمر . حتى اصبحوا يوالون اعداءها عليها حبا في التخلص من ذلك .

السبب الثاني ـ هو نشوء فكرة الاستقلال في بلاد البربر . وتاسيس دولة بربرية بحتة . وتلك فكرة اكتسبوها من نفس وجود قرطاجنة . ومما راوه من نظامها وتنسيق ادارتها . فلوكانت سياستها حكيمة لكان ذلك الاستقلال يتكون معها . وهي حكومة وطنية في البلاد . لكنها بسوء تصرفها جعلت تلك الفكرة تتربى ضدها . ومهدت الطريق لدسائس الرومان وانضمام كثير من البربر لهم .

السبب الثالث ـ تهاونها برومة في اول الامر . وكان عليها ان تراقب سير تلك الدولة الناشئة . وتدرك انها ستكون لها اكبر الخصوم فتستعد لها استعدادا تاما .

السبب الرابع ـ سوء نظام الجند القرطاجني . وتاليف اغلبه من فرق مستاجرة . تجمع شتات الاقوام والامم الاجنبية . فكان الجند يقاتل . وليست له روح وطنية . وليس له وازع يدفعه للاستماتة في سبيل قرطاجنة . وهو لا يريد ان يموت فداءها .

بل يريد ان يبقى حيا ليتقاضى منها اجوره . فجند كهذا الجند حري بان ينكسر امام الجند الروماني . وكله تقريبا مؤلف من ابناء الوطن الايطالي . واذا كان الجندي لا يقاتل والروح الوطنية تتقد في قلبه اتقادا فهيهات له أن ينال النصر . ولولا الجند البربري الوطني القرطاجني . لما كان لهذه الدولة ادنى تاريخ حربي .

السبب الخامس ـ هو الخلافات الداخلية التي كانت تمزق كبد قرطاجنة حتى اثناء المواقف الحرجة جدا . والنزاع القائم بين عائلتين عظيمتين : عائلة حنون وعائلة برقة . دام قرونا . ولكل من العائلتين انصار واعوان . فكانت الاعمال الوطنية . والمصالح العسكرية . وحتى سلامة الوطن تضحي في سبيل تلك الخلافات وذلك النزاع . وان شئت فاصدع بالحق وقل ان اداء الشخصيات قد استفحل في جسم تلك الدولة . فقادها الى حتفها . وسبب لها الموت والدمار .

تلك هي اسباب الخراب التي تتبين لك . عندما تتلو التاريخ القرطاجني . بعين تامل وامعان نظر . وانما الدولة كالافراد . تنشا فتية . ثم تنمو . ثم تكتهل . ثم تموت اما بداء عضال . او بداء الشيخوخة . وما المرء الا حديث بعده . وما الدولة الا آثارها بعدها .

فالمدنية القرطاجنة هي التي طبعت بطابعها هذا القطر . اذ كانت اول مدنية اعتنقها عندما خرج من فطرته الأولى . ولئن كان ملك قرطاجنة الفعلي لم يدم الا تسعة قرون . فان تاثيرها الأدبي ونفوذ مدنيتها مكث في هذه البلاد . كما ايده الباحث باسيت . سبعة عشر قرنا . ولم تستطع المسيحية ولم يستطع حتى الفتح الاسلامي . ان يزيل آثار تلك المدنية الشامخة . تلك المدنية التي هيأت المغرب ليدخل بعد قرون عديدة اخرى في الديانة الاسلامية والبربر والفنيقيون والعرب . يمتون الى بعضهم البعض كما علمت . بنسب قريب .

(* الكتاب الثاني *)
قرطاجنة الرومانية

* التقسيم الاداري الأول *

بادر الرومانيون عندما استقرت قدمهم في البلاد . بوضع تقسيم اداري لها . لكنهم لم يجدوا بعد اعمال الفكر تقسيما خيرا من التقسيم القرطاجني . فاقروه . وبهذه الصفة اصبح المغرب يشمل :

1 ـ افريكا . وهو التراب الوطني القرطاجني سابقا . يمتد حده من طبرقة الى مقربة من قفصة ثم ينحني لينتهي جنوب صفاقس . وهذا القسم يقع تحت الاحتلال الفعلي الروماني . ويديره الرومانيون راسا .

2 ـ مملكة نوميديا . غربي المملكة التونسية وشرقي مقاطعة قسنطينة وقد قسموا نوميديا هذه الى قسمين . وعلى راس كل قسم ملك بربري خاضع لسلطان روما . فكان على راس القسم الشرقي مسيسبا (1) بن ماسنيسا . وكان على رأس القسم الغربي ابن أخيه يوغورطة .

---

(1) كان عالما اديبا . ولقد الف باللغة القرطاجينية تاريخا جزيل الفائدة .

3 ـ موريطانيا . وهي كذلك مقسمة الى شرقية وغربية . وموضوعة تحت امرة رؤوس من البربر الخاضعين .

اما عاصمة المغرب الروماني . فقد كانت في أول الامر اوتيكة . ومضى على ذلك عشرون عاما . لكنهم شاهدوا بالتجربة ان اوتيكه ليس لها موقع يخولها ان تكون عاصمة ونظروا نظرة البلاد فما راوا غير موقع قرطاجنة يصلح لاختطاط مدينة جديدة .

وهكذا عزموا على اعادة قرطاجنة . ونفذوا عزمهم بجد ونشاط . وما هي الا مدة وجيزة مضت واذا بقرطاجنة الرومانية قائمة على انقاض قرطاجنة الاخرى . واذا بها تكبر وتعظم . واذا بها اعظم مدن المغرب . واطلقوا عليها يومئذ لقب جونونيا . نسبة للالهة جونون . وهي تانيث (القمر) ربة قرطاجنة .

البربر واحتلال روما للمغرب

راينا فيما سلف ان فكرة الاستقلال قد اختمرت في افكار البربر . واصبحوا يشعرون بوجوب تاسيس مملكة بربرية مستقلة . تلم شتات القوم وتسير بهم سيرا وطنيا نحو التقدم والرقي .

كذلك راينا روما تحث ماسنيسا على محاربة قرطاجنة . تنفيذا لتلك المبادي . وراينا ماسنيسا يؤسس دعائم استقلاله على اساس متين . وما كان يرتبط بقرطاجنة ادنى ارتباط . سوى ارتباطه بنفوذها المدني . والعلائق التجارية .

تدهورت قرطاجنة . واستقر قدم روما في البلاد . فاصبحت نوميديا . وطن ماسنيسا . تلك المملكة التي كانت مستقلة وتطمع ان تجمع حولها بلاد المغرب . وروما تعدها بتنفيذ ذلك وتمنيها . تلك البلاد اصبحت مقسمة وامراؤها خاضعون لسلطان الرومان .

فكيف كان قبول البربر لهذه الحالة الجديدة ؟ وهل رضوا أن يستسلموا طوعا لسلطة روما ؟ وان يلقوا ظهريا ما كان لهم من آمال الوحدة والاستقلال ؟ .

كلا ! انهم لم يرضوا بذلك ولم يدعوا من افكارهم تلك شيئا . ومكثت تلك

الروح حية تعمل في صدورهم . وتنتظر بروز زعيم تلتئم حوله شتات القوم وتسير تحت لوايه في سبيل الحرية .

الملك مسيسبا

استمر الملك مسيسبا ابن ماسنيسا يحكم بلاده بحكمة وحنكة . وكان بعيدا عن المطامع يشغل اوقاته بدراسة الفلسفة اليونانية . ومات اخواه وشريكاه في الحكم . فصار وحده الملك المطلق . واستعان بولديه حمصال وظهربغل . وبابن اخيه يوغورطة وجعله على غربي المملكة . ولقد اظهر يوغورطة من الذكاء والمقدرة ما اوجب له اعجاب الناس . فخشي مسيسبا مزاحمته لولديه بعد موته . وارسله الى عدة بعثات حربية تخلصا منه ، لكنه عاد منها ظافرا كريما .

وادرك مسيسبا الموت . فاوصى بالملك من بعده لولديه ولابن اخيه . ووضع الأولين على شرقي البلاد . والثالث على غربها .

وما لبث يوغورطة حتى ظهرت فيه علائم العبقرية . واهلته مقدرته لان يكون الزعيم الذي تنتظره الامة البربرية .

الملك يوغورطة

وكان هذا البطل نعم الخلف للملك ماسنيسا . فقد كان يوغورطة من خيرة رجال عصره واحسنهم ادارة واشدهم مهارة وذكاء . ولقد جعل اكبر همه في توحيد كلمة البربر وجمع شتاتهم . ورای انه لابد لنوميديا ان تسترجع وحدتها التي مزقها الرومان . فالقى نظره الرهيب على نوميديا الشرقية . واغتال ملكها حمبصال . وضمها الى نوميديا الغربية اثر ذلك . فانزعجت روما وارسلت لجنة بحث فيها عشرة اعضاء لتفحص اسباب هذا الانقلاب ونتائجه . قدمت اللجنة فقابلها يوغورطة بعظمة هائلة وثبات عجيب . واخرس صوتها بذهب كثير . فرجعت الى بلادها تؤيد حقه وتدافع عليه ...

وما كادت البعثة تشق عباب البحر راجعة لروما . حتى بادر يوغورطة باعلان الحرب على الملك ظهربعل . صاحب القسم الباقي من نوميديا . وحاصره في عاصمة

ملكه سيرتا (قسنطينة) وفتحها اثر ذلك عنوة وقسرا عام 112 ق م . وقتله بها مع كثير من الرومان . واصبح الملك الوحيد لمملكة ماسنيسا العتيقة . ثم اخذ يقتفي آثار سلفه العظيم . فبذل اقصى الجهد لتنظيم الجند الوطني وترتيب الادارة . وتخطيط المدن وتنشيط الفلاحة والتجارة . وصمم على اعلان الاستقلال التام. وقطع كل رابطة تربطه مع رومة . والاستقلال غاية كل حر . ومبدأ كل شريف ابي . وقال يوغورطة اننا خلقنا احرارا في بلاد نوميديا فلا نرضى بتحمل عبء اليد الاجنبية على رؤوسنا . وصمم على نزع تلك اليد .

وانتبهت روما لمساعيه . فارسلت تناقشه الحساب على قتله لرعاياها اثناء احتلاله لسيرتا . واستقدمته ليقف أمام المجلس الأعلى .

فهل خاف يوغورطة شر العاقبة ؟ وهل توجس شرا من سفره الى روما ؟

لم يقع من ذلك شيء . بل أنه صمم بكل ثبات وشجاعة على السفر الى روما وسافر . ولما حل بها . وجد فيها احد اقرباء الملكين اللذين جند لهما وخاف ان يطالبه بملك اقربائه . وبذلك تشتت وحدة نوميديا . فلم يأخر عن قتله في وسط روما على رؤوس الاشهاد بواسطة عونه .

كان يوغورطة يعلم ما هي روما . ويعرف من هم الرومانيون . ويوقن ان مفتاح الذهب يستطيع ان يفتح بكل سهولة ابواب الامانة في صدورهم وهكذا كان . فان المجلس الروماني كلف هياة تبحث يوغورطة عن اعماله . فوقف امام الهياة . واشترى بالذهب نفوسها . فصارت له عونا . ورجع ظافرا الى مقر ملكه .

ولقد وقف عند ابواب روما . لما خرج منها . والتفت الى تلك المدينة العظيمة قائلا : آه لووجدت من يشتريك ايتها المدينة المعرضة للبيع

حرب روما ويوغورطة

لكن مجلس روما راى من بعد انه لابد من محاربة يوغورطة . والا فان مآل المغرب ان يقع بتمامه بين يديه . فما كاد ملك البربر يستقر في بلاده . حتى اعلنت روما عليه الحرب . واصمدت الى بلاده جندا عتيدا عام 110 .

جرت وقائع الحرب بين الفريقين . وكانت الاتعاب قد انهكت الرومائيين وكان فصل الشتاء مخيما بامطاره وزوابعه . فراي يوغورطة ان الفرصة سانحة لاذكاء معركة حاسمة . فجمع جنده الوطني وهاجم القوى الرومانية بكل شدة وصلابة فدحرها . ومزق شملها كل ممزق . واستسلم لاسره من بقي فيها بقيد الحياة . وهكذا نال الانتصار العظيم على روما . ثم اطلق الاسارى على وعدانهم يغادرون البلاد في عشرة ايام .

لكن روما لم تصبر على هذا الانكسار الشنيع . فارسلت جندا جديدا . وارسلت معه امهر قادتها متيلوس . فهاجم بلاد نوميديا من جهة الجنوب وكان هجومه وحشيا مخربا . فاخذ يتقدم . ويحرق كل ما صادفه امامه من المدن والقرى . والمزارع . فاتكا بالسكان فتكا ذريعا .

وهال يوغورطة ما شاهده من تخريب وطنه والفتك بامته . فطلب الصلح من متيلوس . واجابه هذا الى مطلبه . مقابل شروط ثقيلة ارتضاها الملك البربري . منها تسليم فيلته وخيوله وسلاحه . و 200000 رطل من الفضة وكذلك تسليم الفارين اليه من جنود الرومان .

استلم فابيوس من الملك البربري تلك الجنود الفارة . فدفنها في الأرض الى نصف الجسد . واخذت جنوده في رشقها بالسهام . وذلك اقل جزاء الخائنين . ثم اخذ يلح على الملك البربري في زيارة المعسكر الروماني الحاحا ففطن الملك للحيلة . وادرك انهم يريدون اسره . فغادر الواجهة وخيب امل الرومانيين .

لكن روما لم ترض هاتيك الشروط . وقالت لئن تركنا يوغورطه حرا ليعيدن الكرة علينا . وارسلت تطلب اليه نفسه الى اسرها .

ولم يرض البربر تحمل هاتيك الاهانة القاسية . فرفعوا من جديد السلاح واوقدوا في اوجه الرومان نيران الحرب . واشتدت بين الفريقين اهوالها . وكان على راس الرومانيين القنصل ماريوس . فتعقب الملك البربري . حتى اوصله الى موريطانيا .

تدخل الملك بوكوس

قابل عندئذ يوغورطة الملك البربري بوكوس والدزوجته وملك موريطانيا

واقنعه بوجوب اعانته على حرب روما فاقتنع . اذ افهمه ان مقصد روما هو احتلال نفس بلاده بعد احتلال نوميديا ان تمكنت من ذلك . فجهز الملكان جندابربريا كبيرا . وسارا قاصدين سيرتا . لكن الرومانيين قد اعدوا للامر عدتهم . وارسلوا لبوكوس يحذرونه سوء العقبى ان اغتر ليوغورطة . فكف عن اعانة صهره . وبقي يوغورطة وحده يحارب حرب الكمين . وقد اتخذ لنفسه مدينة قفصة عاصمة وقتية اودع فيها ذخائره وكنوزه .

ثم هاجمه الرومانيون بشدة فغلبوه . وهزموه من جديد الى موريطانيا فنزل ضيفا ثقيلا ببلاد صهره بوكوس . واخذ يحاوله في تجديد الحملة .

وارسلت روما تطلب الى الملك تسليم صهره . وكان من نذالته انه رضي ذلك . وارسل اليه يطلب منه الحضور للمذاكرة مع رسل روما في الصلح .

لكن يوغورطة كان اذكى من ان يقع في هذا الشرك . فقبل القدوم لكن على شرط ان يبقى القنصل الروماني سيلا في معسكره رهنا . واخذ بوكوس يفكر : هل يسلم سيلا ليوغورطة . او يسلم يوغورطة لسيلا . واخيرا عزم على الخيانة . وقال ليوغورطة انه يجب عليه أن يحضر هو وخصمه سيلا بدون سلاح ليتفاوضا عنده . فاقتنع الملك بهذا . وجاء . ولما اجتمع مع خصمه احدقت به جنود روما التي كانت مختفية . وهكذا وضع الغدر والخيانة حدا لحرب الاستقلال البربرية . ومع يوغورطة سقط الاستقلال البربري كما قال الاستاذ مارسي . وكان ذلك سنة 106 .

اقام الرومانيون بعاصمتهم احتفالا هائلا بنصرهم . وتصدر القائد ماريوس ثم اخرجوا يوغورطة من سجنة وهو مقيد ولابس ثيابه الملكية . ليعرض على انظار الرومان واستهزائهم .

كان يطمع ان يصير سلطانا عظيما . وان يعلن في بلاد المغرب استقلاله التام . واذا به يرى نفسه والقيود في بدية ورجليه . وشعب رومة يضحك به يستهزىء و يصيح ورجال روما الذين كان اشتراهم هو بنفسه بالمال . جالسون على الارائك بعظمة وخيلاء .

لا يستطيع فكر انسان ان يتحمل هاتيك الصدمة الهائلة ! فاختبل عقل الملك العظيم في ساعته . واخذ يصيح في وسط القوم : ما ابرد الماء في حماماتكم ! اخذوه وارجعوه الى سجنه العفن . وتناسوه فلم يقدموا له طعاما وشرابا . وهكذا مات

يوغورطة جوعا وعطشا في سجن الرومان . في سبيل استقلال امته . في سبيل تحرير قومه . في سبيل خلاص وطنه .

ثم ضمت روما الى مستعمرتها افريكا اواسط تونس . وقسمت من جديد نوميديا الى قسمين . وضعت على الشرقي منهما الملك ماندرستال . وعاصمته حمام الدراجي قرب سوق الأربعاء . ووضعت على القسم الغربي الملك حمصال الثاني ابن اخ يوغورطة وعاصمته سيرتا . وضمت اكثر هذه البلاد الى بوكوس جزاء على خيانته .

الحرب الداخلية

لكن . روما لم تتمتع بانتصارها ذلك . وتجرعت بعده مرارة الحرب الداخلية الفتاكة . تلك الحرب التي اثارها القائدان ماريوس وسيلا . لتنازعهما على الرئاسة . فتقاتل الفريقان . وتذابح انصارهما مذابح فظيعة . وطارت شرارات ذلك الى المغرب فاوقدت به النار . وتحزب فريق منه لسيلا وآخر لماريوس . وجرى به ما جرى بروما وبعد قليل انحسم النزاع . ورجع السلام .

لكن داء الحرب الداخلية كان مستفحلا بروما . وإن هي الا مدة وجيزة وإذا بحرب اخرى قد اشتعلت . سببها تنازع السلطة ايضا . بين يوليوس قيصر — جول سيزار — وبين بومباي .

يوبا الأول البربري

وكان على راس نوميديا الملك البربري يوبا الأول . ابن الملك حمصال فتعصب الى بومباي ضد قيصر . وكان على موريطانيا ملك بربري آخر . تعصب الى قيصر ضد بومباي . فانتصر يوبا اول الامر نصرا كبيرا . ثم قدم قيصر بنفسه يقتفي آثار البومبايين . ونزل بحضرموت (سوسة) وهاجم يوبا . ومن معه من بربر ورومان فهزمهم هزيمة تامة . قرب راس الديماس . عام 40ق.م(1) وانتحر اثر ذلك الملك يوبا الأول . فكان آخر ملك على نوميديا الشرقية .

---

(1) ولقد نال قيصر في روما مقاما رفيعا جدا لم ينله احد قبله لعظمته الحربية فلقد حارب ثلاثة ملايين

لكن الراحة لم ترجع لروما ولبلاد المغرب . الا بعد ان تقوضت اركان الجمهورية. وقام على انقاضها عرش القياصرة . واعتلاه الملك اوغسطس عام 31 ق م (2)

وكان هذا الامبراطوركثير الاعتناء بامور افريقيا . فارسل اليها ثلاثة الاف من المستعمرين . وصير مستعمرة افريكا تابعة للمجلس الأعلى الروماني .

ملوك نوميديا

واني لذاكر لك الساعة اسماء كل الملوك البربر الذين تولوا امر نوميديا الى حدود

من الناس . وقتل كما يقول المؤرخون الرومانيون نحو مليون رجل في حروبه واراد بعدئذ ان يكون السلطان المطلق في روما فتم له مراده . لكن اشياع الحرية لم يرق لهم ذلك وصمموا على قتله وتعاقدوا وكانوا ستين رجلا اغلبهم من الاشراف . ولما جاء اليوم الموعود خرج قيصر لدار المجلس . ولما اقترب منه تقدم اليه رجل بمكتوب فتوقف لينظر فيه . واذاك بادره احد الرجال بطعنة خنجر . فالتفت اليه شاتما وافتكه منه . واذاك التف به المتامرون . فدافع عن نفسه دفاعا هائلا . حتى راى بين القوم ابر يتوس وكان يحبه كولده . فوقف على الدفاع وقال له بعين التقريع : «وأنت ايضايا بريتوس !؟»ثم حجب وجهه بردائه وسقط ميتاً . تحت قدمي تمثال بومباي . فيا للصدفة الغر بة . ثم التفت بريتوس للخطيب الروماني المصقع سيسرون قائلا له : لتكن مسرورا يا ابا الوطن . فهذه روما قد تحررت من اغلالها ! وكان موت قيصر عام 44 .

(2) في هذه السنة انقرضت الدولة البطليموسية من مصر . وذلك بموت الملكة كليو باترا الشهيرة بجمالها ومفاسدها . وكانت تزوجت وسنها 17 عاما اخاها بطليموس وكان لا يتجاوز 13 سنة وقصدها بذلك الاستيلاء على الملك ولما مات بطليموس تزوجت اخاها الثاني وسنه 11 عاما . وبعد اربع سنوات مات مسموما . فاستقلت بالحكم . وكان لروما وقتئذ نفوذ على مصر . فلما عزم انطوان على الانتقام لقيصر ومحاربة بريتوس واشياعه . ارسل اليها لتوافيه بجيوشها الى نهر طرسوس . باسيا الصغرى . فلبت الطلب وسارت . واخترقت النهر في زورق بديع . قلعة حمراء . وعليها ثياب ارجوانية . والموسيقى تعزف حولها والطيب يعبق معطرا الانحاء . واعدلها انطوان حفلة لا يستطيع قلم وصفها . وان هي الا رشقة واحدة من سهام عينيها. واذا بانطوان المسكين يترك الثار ويترك قيصر ويترك روما ويترك جنده . نبعها الى الاسكندرية . فتزوجته. وكان لانطوان زوجة اخرى هي اخت اوكتاف الذي صار اوغسطس وكان شريك انطوان في الرئاسة . فلما علم ان شريكه ترك الحرب واتخذ زوجة اخرى على اخته عزم على حربه وسافر اليه . وانتصر في مصر . فانتحر انطوان . وحاولت كيلو باترا استباء اوكتاف فلم تنجح . وخافت ان يذهب بها اسيرة الى روما . فلبست افخر ثيابها . وقسمت حليها على خدمها . وانتحرت اما بسم أو بلذغ افعى أعدتها لذلك اليوم . وهكذا انتهت الدولة البطليموسية بعدما ملكت 249 عاما واصبحت مصر رومانية .

بلاد مراكش . واستقلوا بها استقلالا تختلف درجاته . من التام المطلق . الى الخاضع «لنفوذ» دولة روما او قرطاجنة :

سيفاكس ـ نوميديا الشرقية	225 ق.م
غولا ـ نوميديا الوسطى	201 ق.م
ماسنيسا وفارمينا ـ نوميديا الشرقية	201 «»
ماسنيسا وحده ـ نوميديا الشرقية	؟
مسيسبا وغولوصة ومناص بعل ـ نوميديا الشرقية	149 ق م
مسيسبا وحده ـ نوميديا الشرقية	145
ظهر بعل وحمصال و يوغورطة ـ نوميديا الشرقية	118
ظهر بعل و يوغورطة وحدهما ـ نوميديا الشرقية 117	117
يوغورطة وحده ـ نوميديا الشرقية والغربية	112
غودا ـ نوميديا الشرقية	104
بوكوس الاول ـ نوميديا الغربية	104
حمصال الثاني ـ نوميديا الشرقية	؟
يرباس ـ نوميديا الوسطى والشرقية	88
ماصنطا ـ نوميديا الغربية	88
حمصال ـ نوميدية الشرقية والوسطى	81
ماصنطا ـ نوميدية الغربية	81
يوبا الأول ـ نوميديا الشرقية والوسطى	50
مازاناسس ـ نوميديا الغربية	50

البطل عرابيون

وانا لنعده من ابطال العنصر البربري وممن جاهدوا جهادا عنيفا في سبيل حريته واستقلاله . واسترجاع المكانة التي كان يريدها له ماسنيسا و يوغورطة .

وعرابيون هذا هوآخر رجل من سلالة البيت المالك الذي اتينا في الصفحة السالفة باسماء ملوكه . فهوابن آخرهم مازاناسس .

ولقد تعصب مع ابيه الى بومباي ضد قيصر . فلما تم النصر لهذا . شرد خصومه .

فآوى عرابيون وثلة من رجال بومباي الى اسبانيا . وهنالك الف عصابات عديدة واخذ يحارب المتصرف الروماني . وانتصر عليه مرارا .

فلما مات قيصر عام 44 ق م . راى عرابيون ان الفرصة قد اتيحت له ليسترجع ملك ابائه واستقلال وطنه .

فجاء الى افريقيا . واجتمع حوله جموع من انصار قضيته . وثاروا في وجه الملك بوغود الموريطاني الذي ضم اليه الرومانيون بلاد نوميديا الغربية . وبعد مقاتلات شديدة تمكن من النصر والفوز . واعتلى عرش اجداده رغما على رومة وعلى انصارها .

وفي تلك الاثناء ثارت الحرب الداخلية بروما . بين اوكتاف وانطونيوس واستعرت تلك الحرب ببلاد المغرب ايضا بين انصار الفريقين . واخذ كل منهم يستميل اليه عرابيون .

لكن الملك البربري راى انه يحافظ على الحياد أولا الى أن يعلم أي فريق يوافق مصلحة وطنه الانضمام اليه .

ولما راى النصر في جانب اوكتاف انضم له . ورمى بجنده ضد انصار انطونيوس فدحرهم . ثم اشتعلت المعركة الكبرى بين الخصمين . وابدى عرابيون من ضروب المهارة الحربية والتفوق العقلي . ما حقق النصر في جانبه واصبحت افريقيا الشمالية عموما نصيرة لاوكتاف . واصبح عرابيون ملكا عتيدا .

واخيرا تصالح الرومانيان . والفا معاً حكومة جديدة بروما . وكانت بلاد المغرب تابعة لانطونيوش . فارسل عليها واليا من قبله . حارب عرابيون حربا شديدة وغلبه في بعض مواطن . فانهزم واستعان بقائد جند اوكتاف سابقا فحاربا معاً الوالي الجديد . وانتصرا عليه . لكن القائد الذي استجار به عرابيون قد دخلته الغيرة لما راى من نفوذ الملك البربري وصولته . فاغتاله نذالة وخدعة . وبموته انتهى امر ملوك نوميديا . اما البربر فلما راوا مقتل ملكهم اسرعوا للوالي الروماني الجديد . ونصروه على القائد الخسيس .

ملوك البربر بموريطانيا

بعد انقضاء امر ملوك نوميديا . لم يبق في المغرب من ملوك البربر الا الذين انتصبوا

بموريطانيا ـ عمالة وهران ومراكش الحالية ـ وقد راينا بعض اعمالهم في الصحائف السالفة . وقدكانوا يخضعون خضوعا مختلف الدرجة «لنفوذ» روما .

ولقدكان على القسم الشرقي من بلاد موريطانيا الملك بوكوس الثاني . وعلى القسم الغربي الملك بوغود الاول . ولماكانت الحرب بين قواد الرومان انظم بوكوس الى بومباي وانظم بوغود الى قيصر .

وفي سنة 40 ق م . مات بوكوس الثاني . ملك موريطانيا الغربية . او الطانجية . وتولى مكانه ابنه بوغود الثاني . فاندفع حالا الى نصرة اصحاب انطونيوس ضدا أوكتاف وسار الى اسبانيا . لكنه ماكاد يخرج من بلاده حتى قامت ضده الثورة في نفس مدينة طانجة مقر ملكه . وهاجمة جاره بوكوس الثالث واستولى على بلاده . فلم يستطع بوغود ان يعمل عملا . واضطر الى ان يذهب الى الاسكندرية . حيث اعطاه انطونيوس قيادة حربية مارسها ومات فيها .

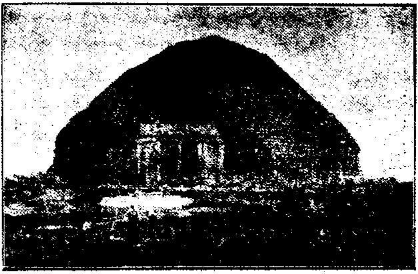
وهكذا تمكن بوكوس الثالث من جمع كلمة موريطانيا . واستولى على جميعها سلطانا مطلقا . ولم يستطع اوكتاف متصرف روما الا الاعتراف به . فانتصب بمدينة يول «شرشال» واستمركذلك الى ان مات سنة 33 . وبقيت البلاد بعد موته بدون ملك بربري الى سنة 29 حيث نصب اوغسطس قيصر يوبا الثاني ملكا على موريطانيا الشرقية .

وهذه اسماء جميع ملوك موريطانيا :

بوكوس الأول ـ جميع موريطانيا	106 ق م .
ولداه ـ « «	80
بوكوس الثاني ـ موريطانيا الشرقية	46
بوغود الأول ـ موريطانيا الغربية	46
بوكوس الثالث ـ اكثر موريطانيا	44
بوغود الثاني ـ موريطانيا الغربية	40
بوكوس الرابع ـ جميع موريطانيا	38

موريطانيا بدون ملك من 33 الى 25 ق م

يوبا الثاني من 25 ق م . الى 23 ب م .



قبر الرومية



19 ـــ نقود الملك يوبا وعليها رسمه و 20 فيها رسم يوبا على اليسار وزوجته كيلوباترا على يمين .

ابنه بطوليمي من 23 ب م الى 40 ب ى.
وهوآخر ملك بربري .

يوبا الثاني

وكان يوبا الثاني ابن يوبا الأول على شيء عظيم من العلم وسعة المدارك له ذكاء حاد وفكر وقاد . وله تآليف كثيرة جدا في كل العلوم والفنون . اهمها تاريخ الرومان . وجغرافية افريقيا وبلاد العرب . وكتب في فني التمثيل والموسيقى . وعلم الاخلاق عند الرومان واليونان . وكان يميل كل الميل الى فلسفة اليونان وادخل ثقافتهم وفنونهم الى بلاده . ولقد تلقى علومه بروما . حيث ان يوليوس قيصر اخذه معه اليها بعد تغلبه على والده . واتخذه لنفسه ابنا . واعتنى به اعتناء عظيما . حتى احرز على سمعة هائلة بالعاصمة الرومانية . وتزوج بابنة انطوان من زوجته كليوباترا المصرية .

تولى يوبا ملك افريكا الجديدة باخلاص تام للرومان . وكان يحب اخوانه البربر حبا جما ويسلك احسن سياسة معهم . فنظم الامور نظاما بديعا . واستتب له الامن .

ولما شاهد الرومانيون ذلك ضموا تلك البلاد الى مستعمرتهم افريكا . فصارت تحت ادارتهم الفعلية . ووضعوا يوبا الثاني على راس بقية المغرب . وموريطانيا الشرقية وهي بلاد الجزائر . وموريطانيا الطنجية . نسبة الى عاصمتها طنجة . وهي بلاد المغرب الاقصى . واستمر يوبا يدير امورها وينظم ادارتها بكل جد واخلاص . الى ان مات سنة 22 ق م . بعد ما حكم اكثر من نصف قرن في مختلف البلاد الافريقية . ولقد كان يحب الابهة حبا جما . وصير عاصمته شرشال من افخر بلاد افريقيا واكثرها عمرانا وحضارة وسماها «قيصرية» وضرب النقود باسمه ووضع عليها رسمه . . وكان لا يحضر وسط الجموع الا وهو مرتد افخر اللباس وعلى راسه قلنسوة هائلة مصنوعة من جلد اسد .

(قبر الرومية)

ولقد ابتني ضريحا بديعا قرب مدينة شرشال . يعرف اليوم بقبر الرومية فوق ربوة يبلغ ارتفاعها 260 ميترا . وذلك الضريح مقام على شكل قبة حجرية هائلة . عرضها 64 ميتر وطولها 33 . وهي باقية الى الآن . رغم تعطب وتهديم اعلاها

شاهدة بابهة ذلك الرجل الكبير . ولقد شيد ذلك الضريح الذي تظهر فيه نزعة الفن الاغريقي لدفن زوجته كليوباترا . فلما مات دفن به الى جانبها .

وخلفه في ملكه ابنه بطوليمي لكنه قتل غيلة . فاغتنم الرومانيون تلك الفرصة وضموا الى مستعمرتهم بلاده . واداروها راسا تحت اسم موريطانيا القيصرية .

ثورة تاكفا ريناس

كان تاكفاريناس هذا احد مقدمي جنود البربر العاملين تحت راية الرومان . ثم غادرهم . واعلن الثورة ضدهم عام 17 . ايام حكم يوبا الثاني . وانضم اليه بربر جبال اوراس وامده زعماء الصحراء بالفرسان . وان هي الا مدة وجيزة حتى اصبحت ثورة البربر عامة ضد الاحتلال الروماني . يرأسها ويقودها تاكفاريناس . ولقد نظم جنده نظاما حسنا . ودربه على الطرق الرومانية . ثم صادم به فرق المحتلين مصادمات عنيفة . وبعد ان نال بعض انتصارات اولية انهزم مرارا . واضطر الى ان يلتجيء الى الصحراء . عام 22 .

فلما مات يوبا الثاني عاد تاكفاريناس الى الظهور. واعانته قبائل غمارة وتمكن بفضل ضعف الرومانيين من اختراق واجهتهم .

عندئذ اتحد ضده كل من الملك بطوليمي ابن يوبا . والقائد الروماني دولابيلا . واشتدا في محاربته وسدا عليه المسالك . وبقي يحارب هووانصاره الى ان تغلب عليهم الرومانيون في مدينة اومال فماتوا كلهم والسيف في يدهم .

وبعدئذ خضع البربرخضوعا سطحيا لسلطة روما . ومن عادة البربر انهم ينشطون بسرعة لكل داعي ثورة . ويهاجمون اعداءهم بشدة عظمى . وان انكسروا يفت الانكسار في ساعدهم . وان حانت فرصة اخرى هبوا للثورة جميعا بنفس الشدة الأولى

عصر السلام الروماني

اثر هاتيك الحوادث . ساد على المغرب سكون نسبي . واتفق مؤرخو الرومان ومن والاهم على تسمية ذلك العصر بعصر السلام الروماني . وفي أثناء ذلك العصر .

وقد دام مائتي عام . كان الرومانيون يقومون في بلاد المغرب باعمال جسيمة . في كل ميدان الاستعمار الشاسع . وسنلقي نظرة على هاتيك الاعمال .

لكن علينا ان تقول بان السلام الروماني لم يكن سلاما تاما . فان ثورات البربر ضد الاحتلال قد توالت .ولقد اعتصم بشاهق الجبال اباة البربر فرارا من سلطة الاجنبي . وتهاون بامرهم رجال الحربية الرومانية . فاصبحت هاتيك الجبال معاقل تحمي رجال الاستقلال البربري . وكانت ينبوعا دائما للثورات والاضطرابات .

من هذه الثورات ثورة قام بها اليهود في بلاد المغرب ضد الرومان في أواخر ايام الامبراطور هادريان سنة 115 م .

وثورتان متتابعتان قام بهما سكان موريطانيا . سنة 117 وسنة 122 .

وقلاقل اخرى اشعلها اهل موريطانيا ايضا من سنة 138 الى سنة 190 تحت حكم القياصرة انطونان ومارك اوريل وكومود .

ثم الحرب بين غورديان وكابليان الرومانيين بالمغرب . من 235 الى 238 كل هذا علاوة على الثورات التي كان يقوم بها نفس الولاة الرومانيين ضدحكومتهم .

وكان الرومانيون اثناء هذه الوقائع يستمرون على التقدم ببطء ومهارة في ناحية الجنوب . حتى بلغوا جهات الصحراء الكبرى . وكلما تمكنوا من ناصية ارض نصبوا بها المستعمرين من ابناء جلدتهم وقاموا فيها باعمال العمران . وكثر اعتناؤهم بهذه البلاد حتى زارها الامبراطور هادريانوس (1) مرتين ونشط بكل قواه سائر الاعمال النافعة حتى لقب بمصلح افريقيا .

وخلفه في السلطنة الرومانية الامبراطور انطونان (2) فسار على خطة سلفه

---

(1) ولد برومة76 وتولى الامبراطورية من 117 الى 138 وكانت ايامه من اسعد ايام السلطنة الرومانية . نشط العلوم والفنون والاداب وتولى حمايتها وهو الذي اختط قصر الملاك المقدس برومة . وله عدة نظامات عدلية مدققة .

(2) ولد عام 86 وتولى من سنة 138 الى 161 ويلقب بالمتعبد . وكان برا شفوقا على الشعب ساهرا على مصالحه. فخفض الضرائب واصلح القوانين . وكان يقول : «الاحتفاظ على وطني واحد احب الى من قتل الف عدو. »

واقتفى اثرهما الامبراطور مارك أوريل (1) الفيلسوف . وفي ايامه بلغت الحضارة اللاتينية بالمغرب اوج علاها .

وقد شارك في هاتيك الحضارة فريق قليل من البربر . اخذوا بالمجاورة بعض عادات الرومانيين . وتخلقوا باخلاقهم . وتسربوا في المملكة الرومانية واعتلوا بها اعلى المناصب . بصفتهم رومانيين . ويقولون ان القيصر سبتيم سيفيروس (2) وابنه كانا من اصل بربري . ولقد وجها اثناء حكمهما كل عناية لبلاد المغرب .

السياسة والنظامات الرومانية

هنا يجب علينا ان نقف وقفة قصيرة . قبل ان ننحدر مع التاريخ الى زمن الفوضى الرومانية بالمغرب . ونشاهد خراب هذه البلاد تحت تصرفهم ونلقي نظرة عميقة على اعمال الرومان بالمغرب . وسياستهم ونظامهم . وكيف كان حال البربر معهم .

الحكومة الرومانية

كان الحاكم العام الروماني لافريكا يدعى البروقنصل . وله في ادارته استقلال واسع . ويقيم في قرطاجنة عاصمة المستعمرة .

وهذا البروقنصل ينتخب بالاقتراع من بين اعضاء مجلس السينات الذين ارتفعوا الى درجة القنصلية . ولا يدوم في ولايته بقرطاجنة اكثر من سنة واحدة . وله مرتب سنوي يجاوز 200000 فرنكا .

---

(1) ولد عام 121 وتولى عرش القياصرة من سنة 161 الى 180 وأوجد الانقياد في الدولة واصلح حال العبيد . وله كتاب جليل يدعى «افكار» لا يزال الناس يتداولونه الى اليوم . وهو يشهد بسعة علمه وسمو مداركه .

(2) ولد بلمطة على ساحل المملكة التونسية . تولى الامبراطورية عام 193 وكان عالما جليلا . ومات مقاتلا بجزائر الانكليز .

اما حاكم نوميديا . فيتولى من طرف القيصر . وله لقب ليكاتوس . واما حاكما الموريطانيتين فمن طرفه ايضا . ولكل منهما مرتب قدره 40000 فرنكا .

مهمة الحكـــام

وكان هؤلاء الحكام يجمعون بين ايديهم كامل السلط . وقال المؤرخ اوغستان تيارى : «ان الظلم الذي لا حد له كان ينزل من هؤلاء الولاة على رؤوس القرويين فيصيبهم في اموالهم وابدانهم

وكانوا وكان المتوظفون الذين يعينونهم على اعمالهم . يوقنون ان صوت المظلومين لا يرتفع لأن من رفع راسه من هؤلاء لا يكون جزاؤه من أولئك الا التنكيل وكان أولئك الحكام ومن معهم غير امناء في اغلب الاحيان . وناهيك بحاكم يمسك بين يديه زمام السلطة المدنية والعسكرية والقضائية والمالية . ولا مراقبة عليه .

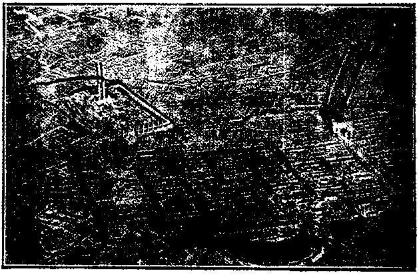
اما القبائل البربرية فقد كانت موضوعة تحت سلطة من البربر يراقبهم الرومان مراقبة تامة .

الجند الروماني

لم يكن الجند الروماني كثير العدد بالمغرب بعد اخضاعه . فلم تكن بمستعمرة افريكا الا فرقة عسكرية واحدة تقيم بقرطاجنة وعددها 1000 رجل .

وكذلك كانت بنوميديا فرقة واحدة . تتالف من جموع رومانية وجموع بربرية . وجملتها نحو 15 ل 16 الفاً . ونحو ذلك المقدار بالموريطانيتين . انما كان هذا الجند الاخير مؤلف اغلبه من الفرق المعاونة . فجملة الجند الروماني كان بالمغرب يبلغ 32000 منهم نحو 8000 فقط من الرومان .

وكانت الفرقة الرومانية الثالثة من اشهر فرق هذا الجند . فقد كانت تقيم بصفة مستمرة بمدينة تبسة . ثم انتقلت . الى لمبيز . وقد امتازت باخلاصها وثباتها . وكانت مؤلفة من الرومانيين المتطوعين . ومعهم بعض جموع من المعاونين . ويمكن لهؤلاء المعاونين ان يحرزوا حق الجنسية الرومانية بعد 25 سنة في الخدمة العسكرية . وكان



آثار تیمقاد صورت من طيارة



دكاكين بسوق تيمقاد

لضباط هذه الفرقة جمعيات خاصة . وكذلك للضباط المعاونين . والابناء ينخرطون في سلكها عند ممات آبائهم .

ولقد كان الجند الروماني كما ترى قليلا جدا بالنسبة لمساحة الأرض التي يحتلها . لكنه كان موزعا في انحاء البلاد بكيفية شديدة الدقة . ونظام يشهد بالمهارة للقواد . فكانوا غالبا لا يحتلون الا المراكز ذات القيمة الحربية ويقيمون بها حصونا منيعة . ويربطون فيما بينها بمراكز استطلاعية متوالية لا تبعد احداها عن الاخرى اكثر من 3 او 4 اميال . بحيث يمكن التخاطب بينها اوطلب النجدة بواسطة التلغراف

مالي اراك متعجبا ؟ اتستغرب وجود التلغراف في ذلك العصر ؟

لقد كان موجودا ! لكن بغير الصورة التي يتمتع بها العالم اليوم . فقد كان التلغراف الحربي في التقديم عبارة عن اشارات خاصة بواسطة النور يوقد على مرتفعات معروفة . فاذا احتاج مركز الى نجدة سريعة اوقد مثلا النور واطفاه ثلاث مرات متوالية . فيراه المركز المجاور ويوقدها كذلك ويطفيها وكذلك يفعل المركز الاخر . حتى تصل الاشارة بسرعة الى المعسكر العام . فتخرج النجدة سائرة مع خط المراكز . والطرق العسكرية منظمة احسن نظام حتى تصل الى المركز الطالب للنجدة .

اما الاسطول الروماني بالمغرب فقد كان مؤلفا من فرقتين . تقيم اولاهما بقرطاجنة . والثانية بقيصرية (شرشال) .

المدن والبلديات

المدن في المغرب . كانت في العصر الروماني تنقسم الى قسمين : المدن الرومانية. والمدن البربرية .

المدن الرومانية . كانت على ثلاثة انواع :

1 ـ المستعمرة الرومانية . وهي التي يتمتع اهلُها بكل الحقوق الرومانية واهمها الاعفاء من الضرائب والانتخابات العامة . فهي عبارة عن مدينة وطنية رومانية.

2 ـ البلد ولاهله حق التمتع بكل الامتيازات الرومانية ماعدى حق الانتخاب

3 ـ المستعمرة اللاتينية . وليس لاهلها حق التمتع بالامتيازات الرومانية انما لحكامها حق الانتخاب والاعفاء من الضرائب عندما تتم ماموريتهم .

وهذه الانواع الثلاثة من المدن تنقسم من حيث الموقع الى خمسة اقسام :

1 ـ المدينة البحرية . وهي مركز التجارة الخارجية . سواء كانت مرسى كبيرا اومستودعا .

2 ـ المدينة الفلاحية . وهي التي كانت قرية صغيرة ثم كبرت بانتشار الاعمال الزراعية .

ـ المدينة العسكرية . وهي التي يقيمها الجنود لسكناهم .

4 ـ المركز ويمتاز عن الثلاثة بما يكون فيه من فخيم البناء والمراسح والامور الفنية .

5 ـ مدن الخلاعة . وهي مدن يقيم فيها الرومانيون الاغنياء مباني جسيمة وقصورا بديعة يقصدونها للاستراحة والتروض زمن المصيف .

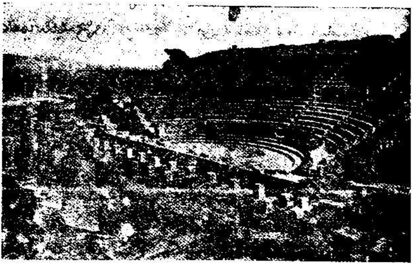
ولكل مدينة من المدن مجلس بلدي . يتصرف في مداخيلها . وكان هذا المجلس مؤلفا من اعيان المدينة بالانتخاب . وعلى من يرشح نفسه لعضوية المجلس البلدي : ان يقدم مقداراً جسيما من المال الخزينة البلدية . وان يعد مواطنيه باحتفال شيق ان هو نجح في الانتخاب . وان يعدهم بالقيام بكثير من الأعمال التي تعود على مصالحهم بالفائدة . واذا انتخب اصبح متحملا بقسط من مصاريف البلد . واصبح مسؤولا عن دخول الضرائب . فان لم يدفعها ناخبوه . دفعها هو عنهم .

وكانت الحياة في هذه المدن الرومانية حياة طيبة ان لم تعكرها الثورات والاضطرابات . وكان عدد الرومانيين الذين يقطنونها يجاوز المليونين في عام 400 وكانت ما بين هذه المدن قرطاجنة وتيسدروس (الجم) تجاوزان المائة الف من السكان .

ويقول المؤرخ بلين الروماني انه كان بنوميديا في ايامه 12 مستعمرة رومانية و 5 بلديات و 31 مدينة حرة .

هذه هي المدن الرومانية .

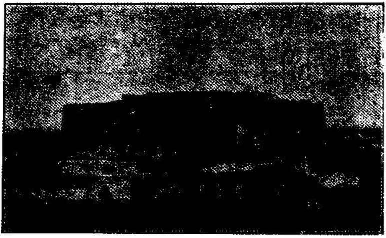
اما المدن البربرية . فما كانت تتمتع بشيء من حقوق الرومانيين . وكانت



مرسح مدينة تيمقاد



الهيكل والساحة العمومية بدقة



بقايا الملعب بمدينة الجم

ادارتها مختلفة . فمنها ماهو خاضع لسلطة رئيس بربري تقيمه رومة وتراقبه . ومنها ما هو محافظ على شكل الادارة البونيقية . ومنها ما تسمح روما فيما بعد بانتصاب مجلس بلدي فيه .

كان الرومانيون يبتنون لانفسهم بالبلاد المغربية مباني جسيمة . ومراسح فخمة . وكانوا يحبون ان يروا آثار العظمة الهائلة على هاتيك المباني .

وكان احب مراكز الاجتماع اليهم هي الحمامات . ففيها كانوا يضربون مواعيد اللقاء . وكانت عظيمة البناء مزدانة بافخر التماثيل وابدع النقوش . ومنها الباردة ومنها السخنة . وثمن الدخول اليها يساوي صنتيما ونصفا . .

اما الاجتماعات العامة فكانت تقع بالساحات العمومية . وهي ساحات فسيحة تحتاطها الدكاكين والاقواس الجميلة . وفي هاتيك الساحات كانت تقع الاحتفلات وتجري عمليات الانتخاب . وتقرا على الشعب فيها التقارير الرسمية والاوامر وتسمى تلك الساحات «الفوروم» .

وكان للرومانيين ولع كبير بالالعاب والتمثيل . فابتنوا المراسح الهائلة(1) والملاعب الفخمة . ولا تزال آثارها قديمة لحد الساعة . كمرسح دقة الشهير باتقان صنعه وتنميقه . وكملعب الجم . وهو من اعظم ملاعب العالم (2) . ناهيك وان طوله 150

---

(1) في المراسح الرومانية القديمة كان الستار لا يرتفع الى الاعلى . بل ينزل الى الاسفل . وكان يشترط في الحظور ان يرتدوا جميعا اللباس الرسمي وهو رداء كبير من الصوف الابيض يلف حول الجسم على نمط «الحرام» الموجود للان عند سكان الدواخل والمظنون ان الرومان اخذوه عن البربر او اخذه الاثنان من اصل واحد .

(2) واعظم مرسح من هذا النوع موجود بمدينة فلافيان طوله 190 ميترا وعرضه 185 وارتفاعه 50، 49 وفيه مقاعد تسع 85 الفا من النفوس . وهو مؤلف من ثلاث طبقات . اما نفس الملعب فطوله 60، (91م . وعرضه 50، 58 ويحيط به جدار ارتفاعه 6 أمتار . وفي أعلى هذا الجدار ابواب عديدة تخرج منها الوحوش عند المصارعة . وانما جعلت تلك الابواب في أعلى الجدار لكي يتسنى للرومان أن يعمروا الملعب ماء عند القيام بالعاب أو مصارعات بحرية . وقد باشر بناءه الامبراطور فاسباسيان عام 75م . واستغل ببنائه 12 ألفا من يهود القدس الاسارى مدة عامين وتسعة اشهر . اي الف يوم كاملة .

ميترا . وعرضه 125 وارتفاعه عن سطح الارض 36 . ويمكن ان يجلس فيه 65 الفا من الناس . وكان الرومانيون لا يسمحون للنساء والعبيد بحضور الملاعب . وكان ابتداء بنائه عام 125 بامر من الامبراطور هادريانوس عند زيارته لافريقيا .

ويمثل هاتيت العظمة كانوا يبتنون الهياكل الدينية . ولا تزال آثار هيكل الزهرة بسبيطلة وهيكل دقة شاهدة على تلك العظمة . وكذلك قوس النصر الذي ابتناه الرومانيون بمدينة لامبيز احتفالا بالقيصر سبتم سفروس .

ومن الآثار الباقية لاعمالهم تلك الحناية العظيمة التي كانوا يجلبون بها الماء من زغوان الى قرطاجنة وطولها 90 ميلا . والطريق الكبرى البديعة التي تضللها الاشجار الباسقة . وتمتد من شرشال الى قرطاجنة . ومن هذه الى طرابلس . وطريق اخرى تخرج من قرطاجنة الى تبسة .

البربر والرومان

انشأ الرومانيون كل ذلك بمدنهم الخاصة . وما كان البربر يستفيدون منها الا عرضا . ولا يستفيد منهم الا من تسرب في الحياة الرومانية . انما الامر الذي لا ينكر هو ان وجود هاتيت المدينة المادية على مرأى ومسمع من البربر قد افادهم بعض الافادة . واثر على اخلاقهم تاثيرا بسيطا . لكن تاثير المدنية القرطاجنية كان مستقرا في نفوسهم .

ولقد تاثر نفس الرومانيين بالمغرب بآثار المدنية القرطاجنية العتيقة فدخلت في علومهم وآدابهم . ولقد قال المؤرخ م . تيري : «لقد كانت العلوم تدرس بمادور وحدرموت ولبتيس وسيرتا . وحتى في دواخل نوميديا . وكانت الدراسة تقرأ باللاتينية . انما هي لاتينية مركبة على البونيقية . التي مكثت حية . ومن هذه المدارس التي كانت تعلم اليونانية واللاتينية والبونيقية تالف ذوق جديد مركب من كل ذلك . انما كانت تغلب عليه الصبغة البونيقية .»

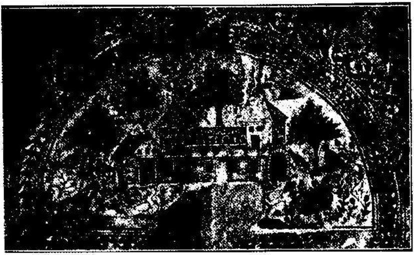
وهكذا كان تاثير قرطاجنة المايتة بالمغرب من الوجهة التمدينية بعد موتها . اكثر من تاثير روما وهي حية متصرفة حاكمة مستبدة . وكان البربر الذين نزحوا الى الجبال

الشامخة . كالجرجرة او بلاد القبائل . وجبال اوراس قد ابتعدوا كل البعد عن سلطة روما وعن آثار مدنيتها . واستمروا على حياتهم المستقلة في اعالي الجبال . غير متاثرين الا بتاثير مدنية قرطاجنة . لانها مدنية اخذوها بالطرق السلمية . ولم تات الى بلادهم معتمدة على الاسنة والحراب كما ارادت ان تاتيهم مدنية روما .

فما نراه في البلاد المغربية اليوم من آثار المراسح والهياكل والعمران . انما كان رومانيا بحتا . لانفسهم ابتناه الرومان . ولا دخل للبربر فيه . ولا يستفيدون منه كما اسلفنا . الا عرضا .

فكانت حكومة الرومان حكومة استعمارية بحتة . تعتمد على جالية رومانية كثيرة العدد بهذه البلاد . ولا تعرف البربري الا لاستثماره واستخدامه لمصلحة الاستعمار . واستخلاص الضرائب منه وتسخيره لقتال بني جلدته ان ثاروا في احدى النواحي عليها . قال الاستاذ ريلودي لامال : كان الرومانيون حتى في الاماكن التي حكموها حكما مطلقا . لا يؤثرون ابدا على المغلوب الا لاستثماره . وكانوا دائما منحصرين ضمن الدائرة الرسمية سواء كانت سياسية او حكومية . فكانوا يعيشون بجانب البربر اكثر مما يختلطون بهم . فاذا ما تمكن بعض انفار من البربر من التحصيل على الجنسية الرومانية . فان المستعمرين الايطاليين كانوا دائما يعيشون متمتعين بامتياز الفاتح . وكانوا لا يخالطون البربر . الا اذا هضم لهم احد كبار المستعمرين حقوقهم . اذاك يلتجئون الى احدى القبائل البربرية التي حافظت في الجبال على استقلالها . يطلبون حمايتها ووقايتها .

ثم يقول : «ولم يكن لهؤلاء اللاجئين اي تاثير على حياة البربر . لان الاكثرية البربرية ابتلعتهم . ولا يقولن قائل ان الكلمات التي يستعملها الآن بعض البربر في الجبال والتي يظن ان اصلها لاتيني . انما هي موروثة عن هؤلاء اللاجئين . كلا . بل انما هي من اصل بربري طوراني . اخذها البربر والرومان معاً عندما كانوا بآسيا .... وكذلك لم يستطع الرومانيون ان يمحوا اللغة المحلية أو يغيروها . ففي عصر سانت او غستان . بعد قرون من انتصاب روما بصفة فعلية . كان المتوظفون ورجال الدين بقرطاجنة يحتاجون لمترجمين عند مخاطبة ابناء البلاد .»



دار مستعمر روماني

نقلا عن فسيفساء بمتحف باردو

الضـــرائـــب

كانت الضرائب في عصر الرومان مختلفة اختلافا شديدا . انما يمكن تقسيمها الى اربعة اقسام :

1 ـ الاداء الشخصي . وكان واجبا على الرجال والنساء . انما مقداره كان يتغير دائما . وهنالك مدن رومانية كانت لا تدفع هذا الاداء .

2 ـ الاداء الفلاحي . وهو يقضي بتسليم المعمر الروماني لعشر محصولاته للدولة .

3 ـ معاليم مضروبة على دخول السلع مختلفة المقدار .

4 ـ السخرة ويجب ان يقوم بها جميع المعمرين . وهي تموين رجال الجند سواء المستقر عندهم او الذي يحل بناحيتهم .

وكانت للبلديات مداخيل اخرى اهمها : تبرع النواب الجدد عند انتخابهم . وما يتركه الاغنياء عند موتهم لفائدة البلدية . ومن هذين الامرين تتجمع مقادير جسيمة تصرف في سبيل المدينة .

امتـلاك الأرض

نرى آثار الفلاحة الرومانية ونشاهد بقايا اعمالها لجلب الماء وغير ذلك . فنعجب بها ونقول ان ابناء روما قد عملوا صالحا في هذه البلاد وافادوا ابناءها افادة جليلة .

لكن الحقيقة غير ذلك . لقد كانت الفلاحة الرومانية زاهرة حقيقة . وكانت اعمالها جسيمة . لكن ابن البلاد المسكين . ذلك البربري الذي كان ايام قرطاجنة يدفع لها ربع محصولاته ان كان بترابها الوطني . ولا يدفع لها شيئا ان كان خارج ذلك التراب . ذلك البربري اصبح تحت سلطة روما لا يملك من الأرض شبرا . فان الأرض برمتها . جميع الأرض الفلاحية بالمغرب كانت ملكا للرومانيين . حيث انهم قد اغتصبوها رسميا لاصحابها . وضموها الى املاك الدولة . فبقي بعضها خاصا

بالامبراطور . ومنح بعضها الآخر لابناء الرومان . وكان الجند الروماني عندما ينتهي مدة خدمته الجندية يمنح قطعة ارض شاسعة . وكان يمكن للاهلي ان يزرع الأرض . لكنه لا يمكنه ذلك الا بصفة مكتر . ويجب عليه دفع الكراء للرومان .

ولقد انتصبت في هذه الأرض مستعمرات فلاحية شاسعة جدا . يملكها بعض ملوك الأرض . ولقد روى المؤرخ الروماني بلين ان نصف اراضي افريقيا كانت ملكا «لستة» من كبار الملاكة . قتلهم الامبراطور الجبار نيرون واغتصب لهم تلك الاملاك . فاصبح يملك نصف الاراضي الفلاحية بالمغرب .

وكذلك استولت الدولة على جميع المناجم ومقاطع الحجر والرخام وغيرها .

وكان المعمرون الرومانيون يفلحون بصفة شركاء مناصفين لاصحاب الأرض . لمدة معينة يمكن من بعد تجديدها أو بترها باتفاق من الطرفين . وقد اصدر الامبراطور هادر يانوس امرا يفصل حقوق المالك والشريك المعمر ويجب على المعمر كذلك أن يدفع معاليم اخرى الى المالك . وكلاهما كما علمت روماني .

انما كان البربر عملة ليس الا . النير ينزل عليهم ثقيلا . وكانوا لا يستطيعون ان يغادروا الأرض التي يعملون بها . فاصبحوا بعد حين عبيدا . وصارت حالتهم كحالة العملة الذين يسمونهم السيرف« (Les Cerfs) » في نظام الاقطاعات بفرنسا العتيقة .

وكان صغار المستعمرين من الرومان يتحملون من اصحاب الأرض مثل هاتيك الاعباء . حتى اصبحوا كذلك يشبهون العبيد . وما نفعهم تدمرهم ولا شكاياتهم شيئا . بل كانت اوامر الامبراطور تصدر مؤيدة هذه النظم الفاسدة .

الاعمال الفـــلاحية

بهذه الصفة كانت تجري الاعمال الزراعية في البلاد . واعتنت الدولة واعتنى كبار المالكين بها . فحفروا الصهاريج العديدة لجمع مياه المطر . وابتنوا السدود المنيعة . وشيدوا القنوات واصبحت افريقيا بفضل محصولاتها الفلاحية تلقب بمطمير رومة . ذلك أنها كانت ترسل لايطاليا ثلث ما يلزمها من الحبوب اي ما يناهز ـ 1800000 هكتوليتر . وقد ابتنى الامبراطور كومود اسطولا خاصا لنقل القمح الى روما .

وكانت افريقيا ترسل كذلك الى روما العنب والرمان والتين والعناب وزيت الزيتون وقدكانت معامل عصره منتشرة بساحل البلاد التونسية .

كما كانت افريقيا ترسل الى روما الخشب والرخام والخيل والغزلان . ولم يثبت انها كانت ترسل البقر والغنم . والحال ان هذه السائمة كانت كثيرة الوجود بالمغرب .

هذه نظرة وجيزة عن الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية بالمغرب الروماني. فلنرجع الى الوقائع .

عصر الاختلال

انتهى عصر السلام الروماني . عصر الراحة النسبية . بتولي الامبراطور اسكندر سفيروس عرش الامبراطورية . فان الاضطراب ساد في آخر ايامه بكافة انحاء الامبراطورية . وثار عليه رعاياه وقتلوه . واولوا قيصرا آخر خليفة له ثم قاموا عليه وخلعوه . واخيرا استدعى مجلس السينات القائد غرديان الذي كان متوليا بالمغرب . ليتسنم مع ابنه عرش روما .

لكن البروقنصل الروماني بقرطاجنة لم يرق له هذا الانتخاب . وكان هذا البروقنصل كابليانوس يريدها لنفسه . فنهض مع بعض جنوده . وقاتل القائد وابنه قتالا شديدا . حتى ظفر بهما . واعدمهما الحياة . واستولى على قرطاجنة العاصمة واباحها لجنده فارتكبوا بها كل الموبقات والتوحش واحرقوا أكثرها .

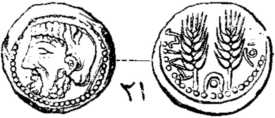
واستمرت الفوضى بالمغرب الروماني باجمعه على هذا المنوال مدة اربعين عاما متوالية . 244 ـ 284 وما ادراك بحال بلاد تمكث في حالة فوضى كامل هذه المدة . ولم يرو التاريخ كيف كانت نهاية كابليانوس .

واشتعلت اثناء ذلك ثورات عدة بربرية . اهمها ثورة الرئيس البربري ارادبون بالساحل الجزائري . ولم تنته الا عام 270 (1) .

---

(1) في هذه السنة تولى‌او رليان قيصرا على رومة . فجهز جنده وجمع قوات عظيمة لمحاربة الملكة زنوبيا

بجنوب تونس .



٢١

نقود مدينة طانجة تحت الاحتلال الروماني . وعليها .

رسم بعل اله القرطاجنيين وكلمة «تينجيس» بالاحرف البونيقية . وذلك دليل على شدة

تأثير المدينة القرطاجنية .

تقسيمان جديدان للمغـرب

عام 297 راى قياصرة روما ان يغيروا النظام الاداري بالمغرب . وان يقسموه تقسيما جديدا . وفصلوا السلطة المدنية عن السلطة العسكرية . فصارت الأولى تحت نظر والي افريقيا . والثانية تحت امرة كونت افريقيا . واصبحت بلاد المغرب مقسمة الى ثمانية اقسام :

1 ـ بلاد طرابلس وتمتد من برقة . من حدود مصر الى شط الجريد بجنوب تونس .

2 ـ بيزاسين ـ جنوب المملكة التونسية اليوم الى قرية الجم .

3 ـ افريكا ـ من قرية الجم الى طبرقة .

4 ـ نوميديا السرتية . من طبرقة الى الوادي الكبير عند امساقة .

5 ـ نوميديا العسكرية . وهي بلاد نوميديا الجنوبية وعاصمتها لمبيز .

٦ ـ نوميديا السطيفية ـ من امساقة الى صلدوى (بجاية)

7 ـ موريطانيا القيصرية . من صلدوى الى نهر الملوية .

8 ـ موريطانيا الطنجية . من نهر الملوية الى المحيط الاطلسي .

وكان القسم الأول طرابلس قد الحق بممالك الشرق . والقسم الاخير . موريطانيا الطنجية قد الحق باسبانيا . وبقيت الاقسام الستة الاخرى . تحت تصرف الواليين المدني والعسكري .

العربية بمدينة تدمر . ولقد ورثت هذه الملكة ملكها عن زوجها اذينة . وكانت ملكة جليلة لها ولع كبير بالنظام . فانتشات الحدائق البهجة واختطت القصور البديعة . وأصبحت تدمر في ايامها جنة الدنيا . وكانت تجهز الجيوش . وتقف امامهم خطيبة تذكي في قلوبهم الحمية وتحضر معهم في ساحات القتال واصبح ملكها يمتد من سوريا الى العراق . ودخلت مصر . فسار اليها اورليان بجموعة العظيمة . وبعد معركة شديدة انتصر عليها قرب انطاكية . ثم نال عليها انتصار آخر قرب مدينة حمص . فتقهقرت الى عاصمتها تدمر . ونصب عليها اورليان الحصار . حتى انقطع عنها كل مدد . فاستسلمت . واقتادها اورليان الى روما . وادخلها وراءه اثناء الاحتفال العظيم بالنصر وهي مقيدة بزناجير من الذهب . ثم اعطاها قصرا عظيما قضت فيه بقية ايامها .

ولقد ثار الجند في آخر الايام على هذا القيصر . بسبب دسائس بثها ضده كاتم سره . فمات مقتولا .

ولما استتب كرسي المملكة للامبراطور قسطنطين باشر عام 323 نظاما آخر لادارة المغرب . فجعل الامبراطورية الرومانية تشمل ثلاثة اقسام : ممالك الشرق . وممالك ايطاليا . وممالك غوليا . وضم طرابلس الى ممالك الشرق . وموريطانيا الطنجية الى ممالك غوليا كاسبانيا . وبقية بلاد المغرب الى ممالك ايطاليا . ومركز الولاة لكل قطعة من هذه القطع هي رومة . وهؤلاء الولاة هم : الوالي المدني . والوالي العسكري . ووزير المال . ووزير املاك الدولة . ويمثل هؤلاء الاربعة نواب بممالكهم .

وكان للسلطة المدنية نائبان بالمغرب : البروقنصل بافريكا . ووالي بقية نوميديا وموريطانيا .

اما السلطة العسكرية . فكان لها اربعة نواب . وكانت طرابلس وموريطانيا الطنجية تابعتين للمغرب من الوجهة العسكرية . وهؤلاء النواب هم :

1 — دوق طرابلس وتحت امرته 12 قائدا ومركزان حربيان .

2 — كونت افريقيا . وله **16** قائدا يحكمون في الجند المرابط بالحدود الجنوبية والفرق المتنقلة .

3 — دوق موريطانيا القيصرية وعنده 8 قواد . ويتسلط احيانا على السلطة المدنية .

4 — كونت موريطانيا الطنجية . وتحت تصرفه قائد للفرسان و 5 قواد للفرق الاخرى .

الديانة المسيحية

(ومفعولها بالمغرب)

كان الرومانيون كغيرهم من الشعوب اذاك يعبدون الاوثان . وهم يرمزون بها الى آلهة جمة . وكان البربر يعبدون كذلك اوثانا ورثوها عن قرطاجنة الأولى . كبعل وتانيت . ولما استقرت للرومان قدمهم بهذه البلاد اخذوا بعض اصنام البربر وسموها باسماء رومانية . وكذلك اخذ البربر بعض اصنام روما وسموها اسماء بونيقية . فما كان البربر والرومان يعبدون آلهة واحدة . انما تغيرت اشكال آلهتهم وصورها . وبقيت

اسماؤها القديمة وكان البربر في الغالب يعكفون على عبادة القوات الطبيعية . كالغابات والاحراش والانهر . بينما كان الرومانيون يعبدون كل صنم اينما وجدوه سواء بالشرق اوبالغرب .

ظهرت بالمشرق انوار الديانة المسيحية في اول عهد القياصرة . فاعتنقها جم غفير من الرومان . وتسربت بواسطتهم الى المغرب . وقدم مبشروها اليه فأعجب البربر بهذا الدين الآمر بالاخوة والمساواة ومكارم الاخلاق . وتسارعوا الى الدخول في دين الله أفواجا . واصبحت لها بيع صغيرة منبثة في كافة انحاء البلاد المغربية .

وكيف يمكن ان يعامل الولاة والكبراء تلك الديانة . وهم اصحاب السلطة والجبروت . وبيدهم الحل والعقد . والناس امامهم عبيد مسخرون . والقوي يملك كل شيء والضعيف لا يملك شيئا . وتلك الديانة تريد ان تسوي بينهم . وتجعلهم امام ربهم اخوانا . لا سيد ولا عبد ؟

انزعجوا من ذلك الامر . واخذوا يبثون العراقيل في سبيل الديانة الجديدة . فما اغنت عنهم تلك العراقيل منه شيئا . واستفحل امرها فاخذوا ينكلون بالمعتنقين تنكيلا شديدا . ولم يقفوا امام اي فظاعة اوقسوة .

فكانوا يسجنون المسيحيين سواء بايطاليا او بالمغرب . ثم يجمعون الناس في يوم مشهود باحدى الملاعب الكبيرة . ويخرجون أولئك التعساء رجالا ونساء في وسط الملعب . ويطلقون عليهم الاسود الكاسرة الجائعة . فتمزقهم اربا اربا وتاكلهم على مرای ومسمع من الجموع المتفرجة . كان أولئك الشهداء شهداء وحشية الانسان . يموتون بكل جلد وثبات .

وما كانت تلك المقاومة الفظيعة لتوقف سير الديانة الجديدة او ترجعها على اعقابها . بل استمرت السوقة معتنقة لها . وازداد انتشارها . وان هي الا مدة وجيزة . واذا ببعض الحكام الرومانيين يعتنقونها . واذا بالراهب القديس سيبريان الروماني يجمع مؤتمرا دينيا بقرطاجنة 85 من رؤساء الدين المسيحي . واستمر توارد الناس افواجا . واستمر الاضطهاد . حتى تولى الامبراطورية صوكليسيان (1) فعامل المتدينين

(1) ولد عام 245 وكان جنديا بسيطا . وارتقى العرش عام 284 . وبعد اعماله تلك اعتزل امور الدولة وعاش بين مزارعه وكرومه بمدينة صالونه ومات عام 313 .

معاملة وحشية لم يروالتاريخ افظع منها . حتى اطلق المسيحيون على ايام حكمه اسم : عصر الشهداء .

ديانة رسمية

حدث بايطاليا خلال القرن الرابع حادث جلل . الا وهو قيام الامبراطور ماكسونس (1) على الامبراطور قسطنطين (2) فاشتعلت بين الفريقين نيران حرب هائلة . وكل منهما يدعي استحقاقه وحده للملك (3) .

واثرت هذه الوقائع تاثيرا هائلا بالمغرب . فجرت به الفتن كذلك . وهاجمت الجموع الثائرة مدينة قرطاجنة ونهبتها . واخيرا استتب لقسطنطين الامر عام 312 . وبادر عندئذ باعلان المسيحية ديانة رسمية للدولة . اذ كان المسيحيون اعوانه وانصاره . ثم نقل كرسي مملكته الى مدينة بيزنطة . ودعاها القسطنطينية نسبة اليه .

وما كادت المسيحية تعلن ديانة رسمية . حتى فر منها كثير من معتنقيها البربر . وهم انما اعتنقوها فرارا من سلطة الرومان . وليتخذوها وسيلة لنزع السلطة الرومانية . فلما اصبح الرومانيون انفسهم يعتنقونها . طفق البربر يفتشون على وسيلة اخرى . ووجدوا ان هذه الوسيلة هي ايجاد خلاف في الدين .

فعندما مات اسقف المغرب المدعى مانسوريوس . وقع الخلاف في تسمية خليفته . وترشح لذلك الراهب ساسيليان . لكن انصار الفتنة ابوا الموافقة على هذه التسمية . وكان زعيم المعارضين راهب قرية بربرية يدعى دونات . وهو صاحب مذهب جديد في المسيحية . وحاول الامبراطور قسطنطين ايجاد توفيق بين الطرفين فلم يفلح . واستفحل الشقاق .

---

(1) تولي من 206 الى 212 ومات غريقا اثناء انهزامه امام قسطنطين بنهر التيفر .

(2) ملك من 306 الى 337 .

(3) في مدة 16 سنة جرت في بلاد الرومان 5 حروب داخلية سببها النزاع بين القواد على استحقاق الامبراطورية

تالف عندئذ جند من اشد الدوناتيين تعصبا . واخذوا يجوبون اطراف البلاد تحت اسم «المتجولين» بدعوى ضم جميع المسيحيين اليهم . ويرى الدوناتيون انهم احق الناس بخلافة الحواريين .

وكان اغلب هؤلاء الدوناتيين من العبيد الآبقين ومن لا يملكون في هذه الدنيا غير اجسامهم . فاتخذوا لانفسهم مذهبا اجتماعيا هو خليط من الشيوعية والفوضوية ويقولون انهم يريدون ان يقرروا مبدا المساواة التامة في الرزق بين الناس . وانهم لا يعترفون باية سلطة . وطفقوا كذلك يتجولون وانقلبوا عصابة نهب وسلب ترتكب الفظائع وتقوم بالمذابح . ولم يبق لهم من الصبغة الدينية اي شيء . فتعقبتهم الجنود الرومانية . وقطعت في آخر القرن الرابع دابرهم . لكن الدوناتيين الحقيقيين واغلبهم من ابناء البربر . ظلوا محافظين على قوتهم وصلابتهم . يترقبون سنوح فرصة للإنقضاض على اعدائهم وكانت حركتهم سياسية ترمي الى التحرير . متقمصة في ثوب حركة دينية . واعظم اسباب هذا الهيجان العظيم هو النظام الاستعماري الروماني الذي ملك الأرض بيد ثلة منتفعة وحرم منها عامة الناس .

تفاقم الاختلال

اخذ الدوناتيون يحرضون امراء البربر على الثورة في وجه الرومانيين . ووعدوهم بالاعانة والتاييد . وكان اولئك الامراء قد شاهدوا ضعف روما . وراوا دبيب الخراب في جسمها الهرم . وكانت نفوسهم طماحة الى الاستقلال راغبة في استعادة ملك الاجداد .

فابتدا الثورة فيرموس ابن الملك البربري نوبيل . وانضم اليه بربر موريطانيا القيصرية . فاستفحل امره . وفتح له احد رهبان الدوناتيين باب مدينة روزاغوس . وكان مع فيرموس قوة بربرية تبلغ 20 الفاً .

وبعد محاربات عنيفة دامت 3 اعوام تغلب عليه الرومانيون وهزموه .

واقتفى في الثورة اثره اخوه جيلدون وكان متوليا السلطة العامة على المغرب

من قبل الامبراطور تيودوز واعلن سنة395 (1) استقلال بلاد المغرب عن سلطة روما . فقاومته جنود الرومان مقاومة عنيفة وخانه احد اخونه . فغلب على امره واخذ اسيرا . وتبدد شمل الدوناتيين عام 397 وانقسموا شيعا عديدة . لكنهم لم ينسوا مذهبهم ولا مبداهم . واغتنم سان اوغستان الراهب فرصة ضعفهم ، فحرض المسيحيين عليهم بغية الايقاع بهم . لكن آثارهم لم تزل باقية . ولم يزالوا يفكرون في الانتقام .

التدهور النهائي

مات في روما الامبراطور هنوريوس . فخلفه صبي لا يتجاوز السادسة من عمره . واقيمت امه بلا سيدية وصية عليه . وكانت الفوضى سائدة بالمغرب والارتباك بالغ حده . ولم يبق للرومان به الا سلطة اسمية . وكان الوالي عليه اذاك من قبل روما هو الكونت بونيفاس وهو متزوج من امراة وندالية اخذها ابان اقامته باسبانيا .

وكان لبونيفاس عدو شخصي برومة هو القائد ايتوس . ولقد تمكن هذا القائد من بسط نفوذه على الوصية بلا سيدية . واخذ يسعى لديها سعيا للايقاع بعدوه بونيفاس . والي المغرب .

واحس هذا بالخطر . فاعلن الثورة في وجه دولته . وكسر الحملات الثلاث المرسلة لردعه . لكنه خشي سوء العاقبة . فتخابر مع الوندال اصهاره واستقدمهم للبلاد على ان يبقوا له تراب قرطاجنة . فقبلوا وقدموا . وبهذه الخيانة انتهى سلطان رومة من البلاد .

نتائج الاحتلال الروماني

رأينا الساعة كيف عاش الاحتلال الروماني في هذه البلاد نحو ستة قرون

---

(1) في هذه السنة تم انقسام السلطنة الرومانية الى شرقية وغربية . وكان المغرب يتبع الغربية منها . وسبب ذلك هو ان الامبراطور تيودوز (378 ـ 395) ادرك انه لا يمكن لرجل واحد ان يسوس سلطنة تمتد من بحر الهند الى المحيط الأطلسي . ومن شمال جرمانيا الى الصحراء الكبرى . فاوصى ان تقسم البلاد بعد موته الى قسمين . امبراطورية الشرق وتختها القسطنطينية وعليها ابنه اركاديوس . وسلطنة الغرب بروما وعليها ابنه هنوريوس .

ـ 576 عاما ـ وشاهدنا كيف كانت سياسة المحتلين في البربر . وكيف تكونت النزعة الاستقلالية في هؤلاء .

فلنحاول ان نلقي الان نظرة على آثار الاحتلال الروماني برمته . وهل ترك في نفوس القوم اثرا علميا او اخلاقيا . او بعبارة اخرى هل عاش الاحتلال الروماني الادبي بعد موت الاحتلال المادي . كما عاشت قرطاجنة الأولى بعد موتها في هذه الديار ام لا.

راينا ان الاحتلال الروماني لم يكن مقبولا من طرف البربر . وما كان احتلال روما لهذه البلاد الا سلسلة متتابعة الحلقات من الحروب الفتاكة ومن الثورات المتوالية . ويقول الاساتذة : مرسى وفورنيل ودين وشار فريات . ان الاحتلال الرومان كان احتلالا سطحيا . ولم يكن للبربرمن هم اثناءه الا خلع نير الاجنبي .

ولئن قال قائل ان مسنيسا ملك البربر العظيم قد قاتل الى جانب روما فالجواب ان ماسنيسا قاتل الى جانب روما يوم لم يكن لروما سلطان على البلاد . وانه ما قاتل معها الا لكي .تمحق قرطاجنة ويبني ملكه البربري على انقاضها . وان روما وقتئذ كانت تعده بتأييد استقلاله لكنها لما لم تف بوعودها وخانت عهده . قاتلها أبناؤه قتالا شديدا . وما حرب يوغورطة عنا ببعيدة .

ويقول الاستاذ شار فريات : ان روما لم تترك بهذه البلاد الا الخرائب ولو ان سلطانها كان وطيدا لكانت بلا ريب تترك غير ذلك .

ويقول الاستاذ بواسيار : يجب علي ان اعترف بان روما كانت لا تريد الاستيلاء على الولايات . وانها كانت لا تعامل هذه الولايات الا معاملة الشعوب المغلوبة . ولم تعتبر نفسها ابدا ام الوطن لهاتيك الولايات . فما كانت تعتبر الا عظمة ملكها الخارجي وعظمتها السياسية والمادية .»

لذلك فالاحتلال الادبي الروماني لم يقع اصلا بهذه البلاد لثلاثة اسباب :

الأولى : هو محافظة البربر محافظة تامة على عوائدهم واخلاقهم واستقلالهم وحربهم الدائمة للرومان .

الثاني : هو ان روما انما احتلت البلاد كما قال بواسيار حبا في الاستيلاء والتوسع

المادي . واقامة المستعمرين والاستفادة من النتائج الفلاحية التي يصدرها هؤلاء غير عاملة للبربر شيئا .

الثالث : سوء سياسة روما مع البربر وسلوكها معهم سلوكا منافيا لكل عدل وانصاف . وناهيك بسلوك ادارة تغتصب من الاهلي كامل الأرض . فلا يستطيع ان يزرع الا اذا استاجر الأرض التي كانت له بنفسه .

والذي يدلك على عدم تاثير الرومان بهذه البلاد هو زوال كل اثر لهم ـ ما عدى الخرائب ـ بعد اضمحلال ملكهم بامد قليل جدا . فلو حصل ادنى اهتمام مهما كان صغيرا بين العنصرين البربري والروماني لبقي لذلك بعض اثر في حياة البربر . وزوال هذا الاثر بمثل هذه السرعة الغريبة هو حادث تاريخي خارق للعادة كما قال م . بيرونيت .

ولقد قال بواسيار مؤيدا هذه النظرية : لم يبق في افكار اهل شمال افريقيا ولا في عوائدهم ولا في اخلاقهم ولا في كيفية حياتهم اي تاثير قرطاجني او روماني اووندالي انما لم يبق بها الا البربري . »

نعم ان البربري قد بقي بعد احتلال روما كما كان قبل احتلالها . واننا لا نقول انه لم يستفد منها شيئا حيث انه بعكس ذلك قد استفاد من مجاورة الرومانيين له افادات عملية واقتبس من المدنية المادية التي كانت ازاءه في بلاده عدة اقتباسات مفيدة . لكنه في عقليته وفي روحه وفي حياته بقي بربريا متمسكا ببربريته . ولناخذ من براسيار شهادة اخرى في هذا الموضوع :

فلقد قال هذا المؤرخ الباحث الكبير بعد تكلمه على تطور البربر مع المدنيات المجاورة له :

«انما الامر الخارق للعادة هو ان البربر اثناء كل هذه التطورات قد حافظوا على الروح القومية . فان هذا الشعب البربري الذي يظهر لنا سريع الانتقال سريع التغير سريع التطور مع المدنيات التي تعيش معه . انما هو من الشعوب التي استطاعت ان تحتفظ احسن احتفاظ بطباعها الأولى ومميزاتها الخاصة . ونحن نراه الان كما كان يصوره لنا الكتاب الاقدمون . ويعيش اليوم كما كان يعيش تقريبا في ايام يوغورطة .

ولا نقول انه احتفظ فحسب على كيانه وسط الاقوام التي عاشت معه بل انه ابتلعها واسدل عليها رداءه» .

يقول البعض ان ما نراه ببلاد المغرب اليوم من هيئة البناء كالقباب والحمامات وحوانيت الاسواق والمحاريث العتيقة والمصوغ ومن الطعام كالكسكسي ومن اللباس كالبرنس كل ذلك انما هو من بقايا الرومان ومن آثارهم .

فيجيب م . بيرونيت : «من ذا الذي يؤيد لنا ان هذه الامور هي لاتينية ؟ او ليست هي بعكس ذلك بربرية بحتة ؟» على ان نفس اللباس الروماني الخارجي كان مقتبسا عن القرطاجنيين وهذا الذي تراه في صورة الراهب القرطاجني المنشورة في الصحائف الأولى .

ان هيأة لباس البربر هي باقية اليوم كما كانت في الاعصر العتيقة . وكذلك طعامهم ويقول البربر اليوم ورثنا ثلاثة امور عن الجدود : لبس البرنوس . واكل الكسكوس . وحلق الرؤوس .

اما الحلي التي نراها عندهم اليوم . فهي شبيهة كل الشبه بالحلي التي نراها في آثار قرطاجنة العتيقة . والاسواق ودكاكينها انما هي صورة لقرطاجنة البونيقية كما يصفها لنا الاقدمون .

نستنتج من كل هذا ان الاحتلال الروماني زالت آثاره من البلاد بزواله . ولما انتهى لم يبق في المغرب الا العنصر البزبري خالصا غير متاثر الا بآثار مدنية قرطاجنة الأولى . وان الرومان الذين مكثوا في هذه الارض نحو ستة قرون لم يفعلوا للاهلي شيئا . انما فعلوا كل شيء لانفسهم فما استفاد البربري منهم الا عرضا .

*
* *

* هونريق *



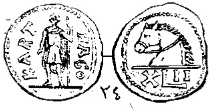


22 ـ الملك هونويق

22 ـ الملك هونريق

23 ـ الملك غوتاموند

24 ـ 25 ـ نقود وندالية





(* الكتاب الثالث *)

قرطاجنة الوندالية

* كلمة عن الوندال *

هم أمة جرمانية صقالبية مستقرها باروبا ما بين نهري الفستول والاودر . وهم من الامم التي كان الرومانيون يطلقون عليهم اسم : الوحشيين (1)(barbares)

ولقد كانت السلطنة الرومانية ابان قوتها ومنعتها لا تسمح لهذه الاقوام بالدخول في تراب الامبراطورية ولا تجيز لهم الاختلاط بالرومانيين وكانت من اجل ذلك تراقب حدودها مراقبة ضيقة .

ولما ابتدات سلطة روما في التقهقر والتدهور . تحت عوامل الهرم ومفعول الارتشاء وحب الذات والتغاضي عن المصلحة الوطنية . عند ذلك خفت مراقبة الحدود . واخذت هاتيك القبائل تتسرب رويدا رويدا في جسم السلطنة .

---

(1) هذه الكلمة «باربار» لا تزال تطلق في اللسان الفرنسوي وغيره على المتوحش . ومما يوجب الاسف ان كتاب العرب اخذوا هذه الكلة بدون ترو ولا امعان . فعربوهاقسرا واستخرجوا منها وصف «بربري» فيقولون قساوة بربرية او وحشية بربرية . جاهلين ان كلمة بربري انما تطلق على العنصر الاصلي بشمال افريقيا . وهو عنصر ليس من الوحشية والهمجية في شيء . فاطلاق لفظ «بربرية» على عمل وحشي انما هو اطلاق لا مبرر له في العربية ولا في الوضع . ولقد بلغ الحد باستعمال هذه الكلمة ان فرنسا طبعت بالعربية كتابا زمن الحرب سمته «سيرة البربر» تقصد بها همجية الالمان ...

وكان الرومانيون قد اخلدوا للراحة والملذات والفوا عيش الرفاهية والتخنث . وغني عن البيان ان صفات كهذه لا تسمح للواقع بين براثينها بان يكون جنديا باسلا يقاتل ليقتل او لينتصر . فمال الرومانيون عن الجندية الى خدور النساء . ووجدوا قبائل «المتوحشين» قد حلت بين اظهرهم فاستاجروها للقيام باعباء العسكرية . وقبلت فصار الجند الروماني خليطا من قبائل كانت بالامس لا يمكنها ان تلج البلاد . وما هي الا مدة وجيزة حتى استحوذ ذلك الجند على النفوذ واصبح صاحب الحول والطول في الامبراطورية وصار الامبراطور بين ايديهم آلة يديرونها واسما بدون مسمى كما سيصبح خلفاء بني العباس بعد مضي عدة قرون من ذلك آلة بين يدي الجند التركي المستاجر .

هاجمت أمة الوندال في القرن الخامس القسم الغربي من سلطنة روما . فاستولوا على الجنوب الغربي من بلاد غوليا . (فرنسا) ثم قاموا من هنالك . وعبروا جبال البيرني ونزلوا على اسبانيا فازالوا من ربوعها اثار الرومان . واستقروا في جنوبها واتخذوها لهم موطنا فاصبحت تدعى واندالوسيا . وحرفت فاصبحت فيما بعد بلاد الاندلس .

الوندال بالمغرب

بقيت هذه الاقوام في بلاد واندالوسيا تشرف من عل على بلاد المغرب وتنظر اليها بكل شره وطمع . وانها لتنتظر فرصة سانحة للانقضاض عليها وازدرادها .

قطع الكونت بونيفاس الوالي الروماني الخائن علائقة مع وطنه . وجند جنوده لمقاومة الجند الروماني . وانتصر في دفعات ثلاث لكنه كما قلناء انفا خاف سوء العقبي . فعزز الخيانة باعظم منها . وارسل الى الوندال رسله ان اقدموا لنجدتي وامراته وندالية كما علمت .

وما كان الوندال ينتظرون غير ذلك فعبأوا ثمانين ألف رجل . واجتازوا البحر تحت قيادة ملكهم جنصريق (1) ونزلوا بموريطانيا الطنجية في شهر ماي 429 . فجابوا انحاءها سافكين للدماء . ومخربين للمعالم تخريبا وكانت الفظائع التي

---

(1) اصل هذه الكلمة الجرماني «جوزريتش» ومعناه امير الرمح .

ارتكبوها تجاوز حدود الحيوانية . فما كانوا يطبقون ما لديهم من فنون التخريب على المعالم فحسب . بل تجاوزوا ومدوا يد التوحش والجريمة الى الأولاد يذبحونهم . والى النساء الحاملات يبقرون بطونهن ويستخرجون منها الاجنة يحطمون رؤوسها الصغيرة على الأرض ويرمون بلحمها البشري الى الكلاب .

هؤلاءهم الذين استقدمهم الروماني بونيفاس لنجدته ضد روما ! .

ولقد شاهد اعمالهم تلك فاشتد روعه . وندم ولات ساعة مندم وعزم على تدارك الامر فجهز فلول جيوشه الرومانية وتقدم نحو الوندال عام 429 (1) وجرت الحرب بين الفريقين وكان البربر يؤيدون جانب الوندال تشفيا من الرومان وخلعا لبقايا سلطانهم . فانكسر بونيفاس وانهزم . ودخل مدينة هيبونة (عنابة) فنصب الوندال عليها وتولى القديس اوغستان الروماني امر المقاومة لكنها كانت مقاومة لا تجدي نفعا وبعد 14 شهرا في الحصار . مات اوغستان وسقطت المدينة . ونجى بونيفاس بنفسه فقاتل خصومه اليوم وانصاره بالامس مقاتلة اخرى دارت فيها الدائرة عليه وعفت عنه يومئذ امبراطورة روما لكن بعدفوات الوقت .

تداخل امبراطور الشرق

وكانت حكومة روما تحتضر . وقد تلاشت قواها . واصبحت لا حول لها ولا سلطان . فما استطاعت ان ترسل جندا للدفاع عن المغرب . لكن امبراطورية الشرق . وامبراطورية القسطنطينية كانت قوية متينة فارسلت جندا روميا لاعانة بونيفاس. وكان جنصريق يعلم ان تداخل امبراطور الشرق يفسد عليه برنامجه ويحبط مسعاه فبادربعقد اتفاق مع ذلك الامبراطور. عام 435 يلتزم فيه بعدم مهاجمة افريكا. وان يدفع جزية سنوية للامبراطور الشرقي . وارسل ولده هنريق رهنا للامبراطور .

اربع سنوات مضت وسلطة الرومان تضعف وتتلاشى . وجنصريق يدفع بكل اخلاص جزيته الى امبراطور الشرق . ويضبط جنده فلا يعتدي اعتداء على تخوم افريكا .

---

(1) قبله بتسعة أعوام ـ عام 420 ـ خرج الرومانيون من ابريطانيا

اذ ذاك اقتنع امبراطور الروم بصدق سريرة جنصريق . فاطلق له ولده الذي كان لديه رهنا .

الاستيلاء على قرطاجنة

وكان جنصريق لا يترقب لنكث المعاهدة الا ذلك الامر . فلم يكد ولده يصل اليه . حتى مزق ذلك الصك الذي اوقفه على ابواب قرطاجنة واطلق العنان لجموعه وما هي الا مدة وجيزة واذا بقرطاجنة تقع ساقطة بين يدي الوندال ويدخلها جنصريق وجموعه في 19 اكتوبر 439 ولم يرمن سكانها الرومانيين ما رآه الرومانيون من استماتة القرطاجنيين البونيقيين في الدفاع .

قام الوندال (1) بواجبهم احسن القيام ... فقد انتهبوا المدينة نهبا منظما وحتموا على سكانها تحتيما ان يسلموا لهم كل ما بايديم من نقود ومجوهرات وحلل نفيسه . فامتثلوا واصبحت بلاد المغرب بعد حين خاضعة باتمها الى سلطان الوندال .

التقسيم الاداري الوندالي

عندئذ قسم جنصريق البلاد الى ست مقاطعات ادارية :

اولا ـ تراب قرطاجنة الاصلي .

ثانيا ـ زوكيتانيا : شمال المملكة التونسية

ثالثا ـ البيزاسين : وسط المملكة التونسية .

رابعا ـ نوميديا : غربي المملكة التونسية ومقاطعة قسنطينة الحالية .

خامسا ـ لابريتانيا : شرقي مدينة تبسه .

سادسا ـ بقية بلاد المغرب الأوسط والاقصى وكان نفوذهم به . ضئيلا .

---

(1) اشتهر الوندال بالتخريب والتدمير. حتى ان الاروبيين يطلقون اليوم على اعمال التخريب كلمة (مشتقة من الوندال .

انتشار الوندال بالمتوسط

اخذ الونداليون يفكرون في التوسع والاستعمار. فابتنوا اسطولا ضخما وانطلقوا يستعمرون جزر البحر المتوسط وينتهبونها فاستولوا على كورسكا وصقلية وسردينيا ومالطة.

وكانوا يتعهدون سواحل ايطاليا بالزيارة مرة بعد اخرى. ينتهبون بها كل ما صادفوه ويسبون من لاقوه. فالقوا الرعب في قلوب الايطاليين.

نهب روما

كانت روما اذاك تسلم الروح. وانها لتجود بالنفس الاخير ما بين قلاقل واضطراب. ونزاع مستمر في سبيل التاج. وثورات متواصلة واصبح عرش روما الواهي يباع بالمزاد العلني.

وهكذا استمر الحال الى ان سقط الامبراطور فالونسيان الثالث مجندلا قتيلا تحت ضربة من يمين السناتوربيترون ماكسيم. وتسنم هذا عرش روما على جثة القتيل وبلغت به النذالة ان اجبر زوجة الامبراطور القتيل على ان تصير امراته. فاصبحت المسكينة لا ترى الا الانتقام لنفسها ولزوجها. وهل تجد من يكفيها مؤونة الانتقام خيرمن جنصريق ورجاله الوندال ؟.

ارسلت اليه رسلها تحثه على القدوم وتطمعه بما في المدينة. وما كان يجهل ما بين جدران روما من نفائس وذخائر وكان جنصريق يريد أن يستميل البربر اليه. وقد اعانوه على روما وايدوه. فجهز اسطولا ضخما يضم بين جدرانه جموعا كبيرة من الوندال والبربر. وابحر قاصدا روما. فوصلها. ولم يستطع خلفاء الذين صدوا حنبعل وجنوده عن دخول روما عام 216 ق. م ان يصدوا عن دخولها جنصريق ومن معه. فلم يجد ملك الوندال مقاومة تذكر.

واستولى على روما. على نفس روما التي استولت على قرطاجنة واتلفتها. واباحها لجنده الوندالي البربري. فسلب ونهب. ودام ذلك نصف شهر كامل ذاق فيه الرومانيون ما اذاقه اجدادهم للقرطاجنيين. الا ان القرطاجنيين فضلوا الموت والاضمحلال على العاروالذل. والرومانيون فضلوا العاروالذل على الموت.

ولم يرتكب جنصريق غلطة فادحة كان يرتكبها لو بقي بروما . فانه بعد نصف شهر حمل غنائمه ـ جميع ثروة روما ونفائسها ـ وقفل بجموعه للمغرب والوية الانتصار تخفق حوله ومن جملة ما احتمله معه تاج القياصرة الرومانيين وجميع مجوهراتهم . وحمل معه الامبراطورة التي استدعته . وابنتيها اودوكس وبلا سيديا . وقد تزوج ابنه هنريق باودوكس .

وقبل ان يعود جنصريق للمغرب جاس بجيشه خلال ايطاليا ناهبا كل ما وجده . ثم سار الى مقدونيا وطراكيا ونهب كل ما بهما من خيرات .

اما بلا سيديا اخت اودوكس فقد تزوجها امبراطور الشرق الرومي .

فوز جنصريق

اصبح ملك الوندال يومئذ ملكا مطلقا على الحوض الغربي بالبحر المتوسط . وكان يقيم العراقيل في وجه روما . ويثير ضدها ما يستطيع من القلاقل . حتى هجمت عليها قبائل الهيرول عام 476 وافتتحتها . وهكذا اضمحلت السلطنة الرومانية الغربية من الوجود بعد ان قامت مدة 1229 اعاما .

حاول امبراطور الشرق عدة محاولات ضد الوندال . كان نصيبها الاخفاق . وما وسعه امام قوة جنصريق الا أن يعقد معه اتفاقية جديدة . مخالفة في معناها ومبناها للمعاهدة التي سلفت بينهما . واعترف الامبراطور زينون (1) لجنصريق انه سلم له كل الحقوق التي له على المغرب . وبهذه المعاهدة اصبح جنصريق معترفا به رسميا من لدن الامبراطورية الرومية . كسلطان مستقل ببلاد المغرب .

ومات جنصريق عام 477م[2] في أوج عزه واسمى فخاره .

ولقد قال الاستاذ مارس في تاريخه اصدق كلمة عن ادارة جنصريق : «لقد اكثر المؤرخون الكاتوليك من توجيه التهم على ملك الوندال . لكننا اذا لا حظنا

---

(1) تولى من سنة 474 الى سنة 491 بالقسطنطينية .

(2) قبله بست سنوات . عام 471 استولى القوط . وهم قوم من شمال اروبا . على قسم من فرنسا وعلى اسبانيا .

صلابة العوائد في تلك الأوقات لا نجد ان افريقيا كانت تعسة تحت سلطته . بل لقد كانت سلطته راحة لها بعد ما عانت من اهوال الفوضى السالفة . »

ادارة الوندال وسياستهم

اتخذ جنصريق قرطاجنة عاصمة لملكه الجديد . وحكم بها كما راينا مدة نصف قرن كامل . واستمرت قرطاجنة على عظمتها السالفة . حيث ان الوندال لم يحطموها . بل اكتفوا بتهديم اسوارها . ومضت مدة وجيزة . واذا بالونداليين انفسهم يتأثرون بالحياة القرطاجنية . حياة اللين والرفاهية . ويتحضرون .

ولقد اتخذ جنصريق من بقايا الادارة الرومانية ولاة من قبله يديرون اعمال المغرب . حيث لم يجد من بني جلدته من هو اهل لذلك القيام . انما كان شديد البغض للنظام الروماني باذلا اقصى مجهوده لتحطيم آثاره الباقية .

ولقد وجد البربر من الوندال انصارا لهم على الكاثوليكيين الرومانيين والونداليون كانوا من الآريين . نسبة الى الراهب آريوس . وآريوس هذا صاحب مذهب في المسيحية لا يقول بالتثليث .

وان لم يكن البربر والوندال على وفاق في اعتزالهم . فاولئك اريون وهؤلاء دوناتيون . الا انهم قد انقضوا جميعا على اعدائهم الكاثوليكيين فنكلوا بهم تنكيلا . ولقد القى جنصريق القبض في ايامه على اسقف قرطاجنة ومن معه من القسيسين والرهبان . وشد وثاقهم على اخشاب ورمى بهم في البحر . وقبض ابنه هو نريق على 5000 راهب كاتوليكي وشردهم في الصحراء .

واستمرت هذه الحرب الدينية كامل مدة التسلط الوندالي .

ولم يكن البربر راضخين تمام الرضوخ لسلطة الوندال . واستمروا معتصمين بالجبال تايبداً لاستقلالهم . انما كان جنصريق في ايامه يتودد اليهم أحيانا باعطائهم قسما من الغنائم . ويقا ومهم اذا نزعوا الى الثورة ضده . انما سلطة الوندال لم تكن الا سطحية في البلاد .

قسمة الأرض

عمد جنصريق الى الأرض الفلاحية فقسمها الى اربعة اقسام :

القسم الأول ـ منحه لاولاده الثلاثة ...... وجعل مالكي تلك الأرض من الرومانيين والنازلين بها . جعلهم عبيدا لاولاده يعملون لهم بتلك الأرض .

القسم الثاني ـ وفيه اخصب اراضي البلاد التونسية الحالية . وزعه على جنوده الونداليين ليجعلهم دائما مستقرين حول قرطاجنة . ولا يدفعون اي ضريبة او اداء انما عليهم القيام بالخدمة العسكرية ليس الا .

القسم الثالث ـ جنوبي المملكة التونسية وبلاد نوميديا . وقد اختص اراضيها بنفسه ....

القسم الرابع ـ وفيه بقية الأرض الاخرى . تركه بايدي المالكين الاقدمين انما عليهم ان يدفعوا ضرائب فادحة مقابل ذلك .

خلفاء جنصريق

أسس الوندال بهذه البلاد مملكة وراثية . تولاها بعد جنصريق ابناؤه . انما لم تكن لهم ما كان لابيهم من المهارة والقوة . فتضعضع ملك الوندال في ايامهم . واقتفى الونداليون اثر الرومان ابان انحطاطهم . فاضاعوا الحياة الجندية . واعتادوا حياة الرفاهية والبذخ والاستحمام اليومي . يقضون اوقاتهم في الخلاعة واللهووالطرب وقد اتخذوا من ملوكهم خلفاء جنصريق قدوة لهم في ذلك الطريق . فساروا فيه سيرهم الفاسد .

في تلك الاثناء كان البربر ينتظمون ويستقلون . ويخرجون عن سلطة الوندال ومراقبتهم شيئا فشيئا . حتى اصبح سلطان هؤلاء لا يمتد الا على قرطاجنة وسوادها . وعلى سواحل المغرب ليس الا .

اما خلفاء جنصريق فهم :

* هونريق *

تولى يوم موت والده . في 25 يناير 477 . (1) وهو الذي كان ارسله ابوه رهنا عند الامبراطور . ولقد كان زواج هذا الملك باوكسيدي كما مربنا شؤما على الوندال . حيث انه أعتمد على صداقة صهره امبراطور الروم . المتزوج باخت اوكسيدي . فامن جانب مداخلته . واهمل القوة العسكرية اهمالا تاما . وتلاشى الاسطول الوندالي الضخم .

وفي مدة ملكه وقعت في البلاد مجاعة هائلة . سببها سوء النظام الارضي . وأتلاف آلات الفلاحة واعمالها . وتفشت الامراض والاوبئة بصفة عظيمة . فعم الخراب كافة اطراف البلاد . واستمر تتبع الكاتوليكيين واضطهادهم . وهو الذي شرد عام 483 رهبان الكاتوليكيين وعددهم 5000 الى الصحراء . ومات في 13 ديسمبر 484[2] بعد ما شاهد تالب البربر ضده . واعلانهم للثورة على حكومته .

* غوتاموند *

تولى اثر ممات اخيه . ولم يقع في أيامه غير استفحال الفوضى وتراكم الخراب . ومات في 13 سبتمبر 497[3] .

* تراساموند *

وكان اعلم اهل المغرب واكثرهم اطلاعا . وانه لشديد التعصب للمذهب الآري وله فيه تاليف نفيس مفصل تفصيلا . ولقد بلغ به التعصب ان نفى كثيرا من بقايا الكاتوليكيين الى سر دينيا . ومات في 6 ماي 523 .

---

(1) قبله بسنة ولد صاحب الشريعة الإسلامية بمكة .

(2) قبله بثلاثة اعوام قامت الدولة الميروفنجية بفرنسا

(3) حارب كلوفيس ملك فرنسا قبائل الالامان وانتصر عليهم . واعتنق اثر ذلك الديانة المسيحية . فاصبح الملك المسيحي الوحيد بالعالم . اذ كل الملوك كانت تابعة لمذهب آريوس . وبسبب هذا نال ملوك فرنسا التقدم الديني على من سواهم باروبا في العصور الوسطى . وصار ملك فرنسا يلقب بالمسيحي حدا

ثورة غبلون

كان البربر منذ عام 480 قد اعلنوا الثورة على حكومة الوندال . انما لم يفعلوا شيئا يذكر . حيث انهم لم يجدوا زعيما يوحد صفوفهم . ويقودهم الى الفوز وتحصيل الحرية .

لكن سنة 520 قد ابرزت لهم من جنوب تونس زعيما هو غباون . فجمع حوله جموعا كثيرة شكلها ببلاد طرابلس . ثم هاجم قوات الملك تراساموند وتقابل الجمعان قرب مدينة طرابلس .

جمع غباون جنده على شكل نصف دائرة . ووضع امامهم عددا كبيرا من الجمال . وبين ارجل تلك الابل وضع رماة السهام . فلما هاجمتهم خيالة الوندال لم يستطع فرسانها ضرب البربر المختفين بين ارجل الابل التي كانت تهدر هديرا مزعجا . فجفلت خيول المهاجمين وولت الادبار . وسببت بذلك خللا عظيما في صفوفهم .

اذاك اخرج غباون جنده من الدائرة . وهاجم الوندال من كل جانب فدحرهم . ويقول المؤرخ اللاتيني بروكوب انه لم يرجع الى قرطاجنة من جند الوندال الا بعض الفارين .

ونزع البربر عنهم سلطة الوندال بواسطة هذا النصر .

ثم نهض فيهم زعيم آخر هو انطلاص . فاستقل باواسط بلاد تونس . ولم يبق للوندال سلطة فعلية الا بشمال المملكة وشرقيها . اذ كانت بقية بلاد المغرب الاخرى قد استقلت تحت امرة عدد من زعماء البربر .

هلدريق

وهو ابن هو نريق . وامه اوكسودي ابنة الامبراطور فالونسيان . ولقد كانت حملته امه الى بيزنطة عند اختها . فشب بها ومكث فيها نحو الاربعين عاماً . وتمكن الوداد اثناءها بينه وبين قريبه جوستينيان الذي صار من بعد امبراطورا على الشرق .

فلما تولى هلدريق عرش الوندال . اخذ يجامل صديقه امبراطور الشرق مجاملة

تشبه الاعتراف بالتبعية له . وكان جوستينيان يضمر في نفسه تدمير ملك الوندال وسط. سلطان الروم على بلاد المغرب .

وفي هاتيك الاثناء اعلن البربر الثورة على الوندال . وهاجموا اواسط البلاد التونسية . فارسل هلدريق ضدهم جندا يقوده جاليمار . فانتصر على البربر الثائرين . ورجع الى قرطاجنة . فانزل هلدريق عن العرش وتبوأه مكانه باعانة الجند . ولا ريب ان «وداد» هلدريق لامبراطور الروم بتلك الصفة كان من جملة الاسباب التي جعلت الناس يرضون انزاله وتبوأ جاليمار مكانه .

جاليمار وتداخل الروم

وجد الامبراطور جوستينيان هذه الحوادث خير فرصة يغتنمها للتداخل اتماما لقصده . فاظهر التحيز لهلدريق ابن خالته . وارسل الى جاليمار يطلب منه ان يبادر حالا بارجاع الحرية والعرش الى الملك المخلوع .

فقال جاليمار لرسل الامبراطور الرومي . انه ملك مستقل لا يعترف للامبراطور الشرقي بحق التدخل في بلاده وسلم اليهم كتابا للامبراطور جاء فيه :

«انني لم استلم السلطة من طريق العنف والقوة . حيث ان هلدريق كان يدس الدسائس ضد عائلته نفسها . فبغضاء الونداليين عموما له هي التي اسقطته . وبسقوطه اصبح العرش خاليا . فتبوأته انا مراعاة لسني ومراعاة لحقوق الوراثة .

«ان الملك الحكيم هو الذي لا يشغل نفسه الا بادارة مملكته ولا يلقي بانظاره خارج بلاده ولا يحاول ان يتدخل في امور بلاد اخرى خارجة عنه . »

«واذا دار بخلدك ان تنكث المعاهدة التي بيننا . فاني مستعد ان اقابل القوة بالقوة » . وبهذا الجواب رجعت رسل جوستينيان الى بيزنطة . القسطنطينية .

اخذ الروم يجهزون بكل دقة ونظام حملة حربية عتيدة . وقبل الشروع في الحملة اخذوا ينشطون ثوار البربر ويؤيدونهم ماديا ضد الوندال فارسلوا نجدات الى البربري بودانيوس ملك طرابلس والى القائد غوداس الوندالي . الثائر في سردينيا على قومه .

حرب الروم والوندال

اتم الروم تجهيزهم . واعدوا اسطولا ضخما يتالف من 500 سفينة للنقل يركبها 20000 بحار . و92 باخرة حربية وكان بالجند عشرة الاف من المشاة وخمسة آلاف من خيرة الفرسان .

سارت هذه العمارة في 22 جوان 533 قاصدة افريقيا تحت امرة القائد العظيم باليسار (1) ويعينه في القيادة يوحنا الارمني وصولومون .

ارسى الاسطول مدة صغيرة بصقلية . ثم ابحر الى افريقيا . ووصل الى سواحلها . فانزل الجند بقبودية (تبعد عن قرطاجنة 210 ك م . على خط مستقيم) واحتل حدرموت

جاءت وفود من البربر تستقبل باليسار . وتعرض عليه خدمتها ضد الوندال . فقرر باليسار الزحف حالا على قرطاجنة . وزحف عليها .

تقابل الجمعان . فكانت الدائرة على الوندال . ووقعت آخر معركة باريانة في 13 سبتمبر 533 انهزم فيها جاليماروجموعه الى جهة دخلة اولاد بوسالم . ووصلت جنود من الروم البرية والبحرية الى قرطاجنة . فدخلوها وقد منع باليسارجنده من النهب والسلب . اذكان يعتبر سكان قرطاجنة اخوانه من بني الرومان . وهو انما اتى مخلصا لهم من نير الوندال . ثم اعلم السكان بصفة رسمية انهم مهما سلموا لجنده شيئا الا دفع لهم ثمنه .

وكان ترازون اخو جاليمار قائدا بصقلية يقاتل الثائرين بها على الوندال فلما هزمهم ركب البحر لنجدة اخيه . فوصل . وضم قواته الى قوات شقيقه واشتعلت بين الفريقين نيران ملحمة هائلة على 30 كيلو ميترا من جنوب قرطاجنة الغربي . اسفرت عن انكسارجموع الوندال انكسارا عظيما . فتفرقوا وانهزموا . في ديسمبر عام 534 وقتل أثناء المعركة الاخ المنجد . وفر جاليمار .

---

(1) ولد عام 494 وانتصر على الفرس والاوستعروقوت . واليه ينسب اختراع آلة الطحن التي تدار بقوة الماء . في هذه السنة أخضع أولاد كلوفيس ملك فرنسا الأربعة مملكة برغونيا وضموها الى ممالكهم .

ولقد ثمل الروم بخمرة النصر . فاقترفوا في البلاد كل انواع الاغتصاب والمظالم وجميع المناكر والموبقات . فنهبوا وسلبوا وقتلوا وانتهكوا الحرمات . ثم عادوا الى قرطاجنة يخفون ما اتوا به من غنائم واسلاب .

واقتفى يوحنا الارمني اثر المنهزمين . ولكن هذا القائد قتل فتمكن جاليمار من الالتجاء الى جبال نوميديا وتحصن بها . وضيق عليه الروم الحصار فاصابته ومن معه مخمصة هائلة فاستسلم عام 534 للاسر . فسير به الى بيزنطة . حيث عين له مسكن قضى به بقية ايامه . ومات ملك الوندال بموته .

نظرة في الاحتلال الوندالي

قال بيكي : حكم الوندال بقرطاجنة قرنا كاملا . لكننا لا نستطيع ان نقول بان الونداليين كان لهم استيلاء فعلي على المستعمرة الرومانية (افريكا) وعلى نوميديا . ولئن تمكن جنصريق من ابقاء الشعوب الاهلية مسالمة . فان جنوده لم تخضع للحكم الوندالي الا السواحل ليس الا .»

لذلك فان البربر تحت حكومة الوندال قد استعادوا كثيرا من حريتهم التي سلبها منهم الاحتلال الروماني . ولم يكن للوندال القوة الكافية والنظام الذي يمكنهم بواسطته احتلال كامل البلاد احتلالا فعليا واخضاع البربر لهم ومن اجل ذلك استفاد البربر من الاحتلال الوندالي فائدة سياسية هي ابعاد السلطة الرومانية عنهم واستعادة استقلالهم فعلا رغم وجود الوندال وسلطتهم الاسمية .

اما الفوائد الادبية التي استفادها البربر من الوندال فلا تبحث عنها كثيرا لانك بعد البحث الدقيق لن تجد شيئا . فما كان الونداليون الا شعبا مخربا لا ادب عنده ولا اخلاق ولا فضائل . ولم يفعل في هذه البلاد اي عمل صالح سوى انه هدم آثارها وخرب معالمها .

ولقد رايت كيف حصلت المجاعة في البلاد تحت حكومة هونريق . وما سبب هاتيك المجاعة سوى فساد النظام الارضي . وعدم وجود المقدرة الفلاحية عند جنود الوندال . وانكبابهم على اللهو والعبث .

فان كامل مدة الوندال بالمغرب يمكنك ان تقسمها الى قسمين :

القسم الاول : وهو نصف قرن حكم فيه جنصريق حكما مطلقا . وكان عصرا حربيا بحتا . وقع فيه فتح البلاد العسكري وانتهاب روما ومقدونيا . واحتلال جزائر البحر المتوسط . وكان للبربر عصر سلام وهدو.

القسم الثاني : عصر خلفاء جنصريق . وقد انغمسوا في الملاهي والشهوات ووجدوا انفسهم في وسط قرطاجنة . وقصورها الرومانية وملاهيها وترفها . وهم الذين لا يعرفون من التمدن اسما ولا رسما . فكانو لا يعرفون السباحة في ذلك البحر المخطر . وغرقوا . قال بيكي ايضا عن هؤلاء الخلفاء « وقد تركوا انفسهم تسير مع الحياة الرومانية الجذابة . بينما كان البربر يستعيدون شيئا فشيئا حياتهم الحربية وقواهم» .

فانت ترى انه لا توجد فترة بين القسمين . قسم القوة العسكرية وقسم الانحطاط . وفي كلا القسمين لا وجود البتة لاي حياة علمية او ادبية او اخلاقية . اوما يمكن ان يسمى بحياة اجتماعية .

فكان الاحتلال الوندالي سحابة سوداء خيمت قرنا على هذه الربوع . ثم زالت . ولم تبق اثرا سوى التحطيم والخراب .

قال مرسي . «بعد مضي ستة اشهر من انتصاب السلطة الرومية . زال كل اثر للوندال بالبلاد . وهذا يدل على قلة العروق التي انبتها الاحتلال الوندالي بهذه الاقطار» .

من أجل كل هذا نعيد القول بان الاحتلال الوندالي لم يفد البلاد اية فائدة مادية او ادبية . انما هو رفع سلطة روما عن البربر . ومكن هؤلاء من استعادة استقلالهم وحياتهم الحربية الحرة . لضعفه وعجز رجاله عن الادارة .

(* الكتاب الرابع *)

قرطاجنة البيزنطية

(الروم)

من هم هؤلاء الروم ؟ وما هي هذه التسمية ؟

الروم كلمة اطلقها العرب منذ القديم على الشعوب اليونانية التي تسكن بلاد الامبراطورية الشرقية . ولقد رايت فيما مضى كيف قسم الامبراطور تيودوز سلطنة روما الى قسمين . وجعل شرقيها ينتصب مستقلا في مدينة بيزنطة وهي القسطنطينية .

فدولة الروم هي دولة يونانية رومانية . بل يونانية اكثر منها رومانية او هي رومانية بامبراطورها . يونانية بحكومتها وشعبها .

اول عهد الروم بالمغرب

استقرت أقدام الروم بالمغرب اثر الوندال . ثم انطلقوا في الحوض الغربي بالبحر المتوسط يحتلون جزره . وهكذا استولوا على الباليار وسردينيا . واخذوا يحاولون احتلال صقلية .

لعلى تذكر أن البربر قد اعتزلوا في المذهب المسيحي واتخذوا نزعة دونات . وأن

الوندال كانوا كذلك معتزلين متخذين مذهب آريوس . وكانت الحرب الدينية الوحشية قائمة بين رجال المذاهب على قدم وساق . في آخر عصر الرومان . وكامل مدة الوندال . وكانت من اكبر عوامل الخراب للحكمين .

فهل اعتبر الروم بذلك . وعملوا على اتقائه ؟ كلا ، فان الامبراطور جوستينيان . اصدر امره السلطاني باعتبار المذهب الكاتوليكي ديانة رسمية ببلاد المغرب . بالبلاد التي قاومت كل مقاومة آثار الكاتوليكية . فرجعت القلاقل . وساد الاضطراب واخذت الوحشية . اللابسة لباس الدين تفعل مفعولها وسط الجموع .

فما كاد يصدر ذلك الامر سنة 535 حتى اخذ الروم ـ او البيزنطيون ـ ينكلون تنكيلا باشياع المذهب الآرى وانصار المذهب الدوناتي . يضربون كل من خالفهم في ذلك الاعتقاد . سواء كان بربريا اومن بقايا الرومان والوندال .

الثورة

في هاتيك السنة نفسها . اندلع لهيب الثورة ضد السلطة الرومية . وابتدات هاتيك الثورة من بربر بيزاسين ـ اواسط المملكة التونسية .

وكان اذاك صالومون متوليا امر افريقيا من قبل الامبراطور الشرقي . فجمع جنوده المنظمة . وقاتل الثائرين فانتصر عليهم دفعتين .

ولقد كان صالومون هذا سياسيا حكيما . لكنه كان لا يعرف السياسة العسكرية . ولا يحسن التصرف مع الجنود . فاساء معاملتهم . واغلظ عليهم . فانفضوا من حوله واخر عنهم دفع الجرايات فثاروا . وتولى قيادتهم البربري ستوتزاس . فهاجموا قرطاجنة. واخرقوا قصر الحكومة . وفر صالومون هاربا .

اذاك استصرخ الروم قائدهم الفاتح باليسار . وكان مخيما على صقلية . فقدم بجنده المنقاد . وانتصر على الثائرين . واخذ يتتبع الزعيم البربري ستوتزاس حتى غلبه بمجاز الباب واضطره الى الانهزام نحو موريطانيا عام 536 وبذلك عادت الراحة السطحية .

صالومون

رجع هذا الوالي الى قرطاجنة مقر حكمه . وبذل جهده في حفظ الراحة والسكون . واستجلب فرقا عسكرية جديدة يؤيد بها حكمه . واخذ يعمل على ارجاع حياة العمل والنشاط والرقي .

ثم هاجم الملك البربري ايدباس المستقل بجبال اوراس . وبعد قتال شديد احتل عاصمته اوراسيوس الكائنة وسط ذلك المعقل الجبلي على ارتفاع 1500 ميتر . والتجأ ذلك الملك الى موريطانيا .

صفا الجو قليلا لصالومون . لكن هذا الصفو لم يدم طويلا . فان البربر بناحية طرابلس اعلنوا الثورة ضد السلطة البيزنطية وتفاقم امرهم . فسار اليهم صالومون بجنوده

تقابل الجمعان . فانتصر البربر . ودارت الدائرة على الروم . فانهزمت جنودهم . وكبا فرس صالومون فوقع اسيرا بيد البربر . فنكلوا به وقتلوه . وذلك عام 545 .

سرجيوس

انتصب سرجيوس هذا واليا على المغرب . ويلقب بدوق طرابلس . وكان شرسا جاهلا . لايحسن سياسة ولا ادارة . فشدد الضيق على البربر . وعاملهم معاملة وحشية. فاتلف في اشهر قلائل ما ابتناه سلفه في اربعة اعوام وكانت سياسته هذه سببا لاشتعال الثورة من جديد . فان البربر لم يستطيعوا صبرا على تلك الاجراآت . فهبوا جميعا للثورة العامة ضد جنود الروم . وكادت سلطة بيزنطة تتقلص يومئذ ابديا من هذه البلاد.

يوحناطر وكليته

اذاك ارسل الامبراطور الشرقي واليا جديدا للمغرب . له حنكة سياسية وخبرة باحوال البلاد . هويوحناطر وكليته . وارسل معه فرقا جديدة من خيرة الفرسان .

جهز يوحنا جنده وهاجم البربر الثائرين . وكان يقودهم انتلاص . وجرت الوقائع الحربية بينهما بشدة . وكان النصر سجالا . فقد انضم الى الروم في واقعة سبيطلة عام 547 وانضم الى البربر في واقعة قابس .

لكن يوحنا تمكن في آخر الامر من ارجاع الهدو . هدوا سطحيا . واخد يباشر ادارة البلاد بسياسة لين ومجاملة . واعمال الخراب والاضطراب سارية سيرا مستمرا في البلاد رغم ذلك . ودام حكم يوحنا اربعة عشر حولا . ثم مات سنة 552 (1) .

الخراب

سادت الفوضى اثر موت هذا الحكم . ولم يتول الادارة بعده الا رجال لاخبرة لهم ولا اصالة راي . واصبح الولاة يفدون على البلاد . لاهم لهم ولا غاية الا التحصيل على ثروة طائلة . فاذا ما تحصلوا عليها رجعوا الى بيزنطة ينفقونها في الملاهي والشهوات . وصار افراد العائلة الامبراطورية يفدون على تلك الصورة . ويباشرون الادارة المختلة بتلك الصفة ويتداولون بينهم امر الولاية . وان اردت الحقيقة قلت امر السلب والنهب فاصبح كل شيء يباع في عهدهم : المناصب والرتب والذمة والشرف . وساد الارتشاء بصورة لم تعرف من قبل .

كل هذا والبربر يعاملون بجفاء وقساوة وغلظة . وما كانت حياتهم في عهد الروم الا سلسلة متواصلة من الثورات . وقد تشبعوا بفكرة الاستقلال . وعزموا على الاستمامة في سبيلها .

---

(1) بعده بسنتين دخلت الديانة المسيحية الى جزيرة ارلاندا على يد راهب يدعى بطريق . فاحبه الارلانديون وصيروه بعد موته قديسا . واتخذوا ينسبون له كرامات ويتحدثون بها الى يومنا هذا ويعتقدون ان ارلاندا تحت حمايته . وانه في السّماء يتولى الدفاع على حقوقها . ولهم يوم عيد سنوي خاص به فيجتمعون في الكنائس يومئذ ويفرحون ويمرحون ويشربون خمرا كثيرا .

ومن اساطيرهم عن هذا القديس انهم يعتقدون بانه اباد جميع الافاعي من بلادهم . حيث ان بلاد ارلاندا لا توجد بها الافعى ابدا . ويقول الارلانديون القاطنون على ضفاف بحيرة كلارني . ان سان بطريق اعياه امر حية كبيرة لم يستطع التغلب عليها قهرا . فاخذ يجادلها بالكلام وهي تجادل ... واخيرا انتصر عليها في الجدال (لانه قديس !) ووضعها في صندوق من الخشب وحملها على كتفه . فاخذت الحية الاسيرة تصيح : اطلقني ! فقال لها القديس غدا اطلقك يا عزيزتي . ثم اتى بها البحيرة ورماها . يقول اولئك الارلانديون ويؤكدون تاكيدا انهم لا يزالون الى اليوم يسمعون صوت تلك الحية تنادي في وسط الماء : الم يات الغد ياسان بطريق ؟ .... هكذا يعتقدون .

السياسة والادارة البيزنطية

لنلق الآن نظرة بحث عن كيفية ادارة الروم للبلاد . وما هو النظام الذى ساروا عليه . ان ثبت ان لهم نظاما يسيرون على مقتضاه بعض الاحايين .

الادارة المدنية

انيطت عهدة امور المغرب من قبل الامبراطور الى حاكم عام رومي له لقب (بريفي دي بريتوار) ومقر حكمه مدينة قرطاجنة . وله السلطة العليا في جميع المسائل الادارية والمالية والعدلية . ولا يمكن ان يصدر امر او قرار بدون امضائه . وله مرتب سنوي (رسمي) قدره 110000 فرنكا . وحول هذا الحاكم يلتف مجلس الحكومة وهو مؤلف من 400 عضو . ومن هؤلاء الاعضاء من يدير أعمال الضبط ومنهم المخصص للجباية . ومنهم المكلف باعمال التحصين . وغيرهم للاشغال العمومية . فكان هذا المجلس عبارة عن مجلس المتوظفين .

وغني عن البيان ان هذه المناصب تباع من لدن الحاكم للراغبين والباذلين في سبيلها الاثمان . والحاكم العام يولي من قبله كذلك الولاة لاقسام المغرب الستة : ـ 1 اشمال تونس (افريكا) . ـ 2 ـ بقية المملكة التونسية وطرابلس . ـ 3 ـ نوميديا .ـ 4 ـ موريطانيا الشرقية (الجزائر) . . ـ 5 ـ موريطانيا الغربية وجزائر الباليار . ـ 6 ـ جزر سردينيا وكرسكا . .

اما عمال شمال تونس وجنوبها وطرابلس فلهم لقب قنصل . وعمال نوميديا والموريطانيتين لكل منهما لقب بريبازيد . ولكل عامل مجلس من المتوظفين فيه 50 عضوا .

الادارة العسكرية والجند

للجند الرومي بالمغرب قائد عام يدعى اكسارك . وله نظر مطلق في جميع امور الادارة كالحاكم المدني . وتعطى غالب الاحيان كلا الوظيفتين لرجل واحد . يحكم على المغرب حكما مطلقا .

وكان الجند البيزنطي مؤلفا من فرق نظامية رومية فيها المشاة وفيها الفرسان . ومن فرق معاونة بربرية . والكل ليس لهم تمام الانقياد لرؤسائهم .

والجند الرومي كان ثقيل التعبئة يقاوم بشدة لكنه لا يستطيع التتبع . اما البربر فكانوا خفيفي الحركة يمتطون صهوة جياد عتاق . يهاجمون بشدة وينهزمون سريعا . واذا ارادوا التحصن اقاموا حولهم معقلا منيعا ...... من الابل لترعب اصواتها خيول العدو ويختفون بين ارجلها .

ولقد كان البيزنطيون يشيدون الحصون المنيعة في كافة انحاء البلاد اتقاء لشر الثورة . وقد بقيت آثار تلك الحصون قائمة لحد الساعة . منها قصر لمطة الشهير . تشهد بالمهارة لمباشري ذلك التحصين .

السياسة الداخلية

كانت سياستهم الداخلية شر سياسة يمكن ان تتبع . فقد ابتدأوا اعمالهم باذكاء نار الخلافات الدينية من جديد . وتتبع المخالفين لهم في العقائد واضطهادهم والتنكيل بهم .

ولما استتب لهم الامر . اصدروا امرا من الامبراطور. لتنظيم ملكية الأرض .

ولا زلت تذكر ان جنصريق قسم كامل الأرض الفلاحية بالمغرب على الوندال. فلما تقلص ملك هؤلاء . اخذ الروم يصادرونهم مصادرة وحشية . فحملوا بقايا رجالهم اي نحو 20000 الى بيزنطة بصفة جنود عبيد . وهذه ارسلتهم الى حدود فارس . اما نساؤهم وبناتهم فقد وقع توزيعهن على جنود الروم .

فبقيت الأرض بعد ذلك شاغرة لا مالك لها . وكان جوستينيان يفكر في اعادة النظام الروماني الذي كان قبل الوندال . فقرر ان يرجع للمعمرين الرومانيين الأرض التي كانت لاجدادهم قبل ان يغتصبها منهم الوندال بشرط ان يطالبوا بها في مدة خمسة اعوام . كما قرر ان يرجع للكنيسة الكاتوليكية املاكها .

فوقع في تطبيق هذا النظام خلل هائل وشغب كبير. اما بسبب جشع المستعمرين.

او بسبب سوء نية المتصرفين والمكلفين بالتنفيذ . واخذت الجنود الرومانية التي تزوجت بنات الوندال تطالب بميراث ابنائها من ملك الوندال . وهكذا استمر الشغب .

انما البربر اصحاب البلاد الاصليون ومالكوها الحقيقيون لم ينلهم في اي حالة من هذه الحالات ادنى نصيب . وما كانوا يعرفون وجودهم الا عند دفع الضرائب الفادحة والاتاوات الثقيلة .

الفنون والآداب

وقع العثور اثناء البحث الاثري الجاري بقرطاجنة . على عدة آثار بيزنطية فيها الفسيفساء الجميلة التي كانت تحلي ديارهم . كما تركوا بعض ابنية منها مراكز حربية . ومنها معابد دينية . كدار القوس بالكاف . وهي لحد الان كنيسة مسيحية .

لكن بقاياهم هذه لا تعني شيئا عما ارتكبوه من الجريمة الهائلة . تلك الجريمة التي اقترفوها على الفن وعلى التاريخ . فانهم اثناء قيامهم بتحصين البلاد لم يتوقفوا عن تحطيم المعالم الرومانية والتماثيل البديعة . ليتخذوا منها حجارة وكلسا لبنائهم . وهكذا كانوا الخلفاء اللائقين بمهمة الوندال التخريبية بالبلاد .

اما الحياة الادبية فيقول التاريخ انها كانت عظيمة بقرطاجنة الرومية لكنا لا نجد من آثار ذلك غير منظومة لاتينية نظمها الشاعر الروماني الافريقي كوريبوس . ودعاها اليوحنية . نسبة الى يوحنا طروكليته وفيها تعداد فضائله وخصاله ووصف حالة المغرب وصفا دقيقا في ايامه .

نظرة في حكومة الروم بالبلاد

يمكننا ان نقول على وجه الاجمال . بان انتصاب الحكومة الرومية ببلاد المغرب كان متمما لما احدثه بها الاحتلال الوندالي من الخراب .

كانت حكومة الروم حكومة اضطراب وفوضى . حكومة نهب ورشوة حكومة ظلم واعتساف . واذا ما دققنا البحث امكننا ان نقول بان الخراب الذي احدثته حكومة الروم بالمغرب يفوق الخراب الذي احدثته بها حكومة الوندال .

اذ ان مظالم هذه الحكومة لم تقف عند اضطهاد البربر . بل تعدتهم الى كل عنصر سكن هذه البلاد . يقول بيكي : لقد كانت السياسة التي سلكتها حكومة البيزنطيين مع البربر سياسة شنيعة .» ويقول بيرونيت «من المحقق ان الولاة الروميين كانوا قساة طماعين . وان كثيرا من المعمرين الذين يستطيعون الهجرة هاجروا بلاد المغرب في ايامهم واستوطنوا صقلية او بيزنطة . وان هذا العهد المظطرب (عهد الروم) قد حمل افريقيا خسارة خمسة ملايين من الناس حسبما رواه المؤرخ (بروكوب)

اما الاستاذ قالبيرت . فيقول عن هذا العهد المشؤوم :

لقد وصل الخراب بهذه البلاد في آخر ايام جوستينيان . الى درجة ان المسافر كان يتجول اياما عديدة في بعض النواحي . بدون ان يصادف نفسا بشرية . والامة الوندالية التي كانت تشمل مائة وستين ألفا من الرجال عدى النساء والصبية والعبيد . قد وقع محقها تماما . وكانت الحروب الطويلة القاسية قد فتكت بعدد عظيم من الاهالي ..... ولما جاء المؤرخ بروكوب لاول مرة الى افريقيا اطنب في ذكر سكان المدن وسكان المزارع وعملهم وجدهم في التجارة والفلاحة . ولما رجع اليها بعد عشرين عاما من ذلك ما وجد بدل كل ذلك الا الخراب الصامت . ذلك ان الرجال القادرين قد هاجروا الى بيزنطة وصقلية . ومن مكث منهم بالبلاد اهلكته الحروب والمصادرات :

«والى كل هذا يجب ان نضم فضاضة الجباة الونداليين وقساوة رجال المالية . فانهم قد اظهروا قساوة وطمعا لم يظهره رجال الحكومة الوندالية . ولقد بلغت الضرائب في ايام جوستينيان حدا فادحا . وفكر احد خلفائه اناستاس بضرب ضريبة على تنفس الهواء .»

ويصح لنا ان نسمي هذا العصر بعصر الثورات البربرية . حيث ان الثورات التي اعلنها البربر في وجه البيزنطيين ورجال ادارتهم لا يمكن ابدا حصرها . وتعدادها

البربر في آخر العهد الرومي

لما كانت هذه الحوادث تجري ببلاد المغرب . وهذا الاضطراب والخراب يعم ارجاءها . كانت طلائع العرب على الابواب . وكانت انظار الفاتحين من بني قحطان متجهة شطر هذه البلاد .

وبما اننا الآن قد اخترقنا تاريخ المغرب القديم . فحرى بنا ان نلقي نظرة اجمال على حالة البربر في البلاد غداة قدوم العرب .

راينا فيما سلف ان المدنية القرطاجنية البونيقية كانت اول مدنية خارجية دخلت الى هذه البلاد . وكان البربر في كل زمن من الازمان لا يريدون عن استقلالهم بديلا . ولم تحاول قرطاجنة تحطيم استقلالهم ذلك . بل اكتفت بربط العلائق التجارية معهم . ولم تمد ترابها الوطني الا على قسم صغير يشمل بعض البلاد التونسية . واكتفت بتعمير المستودعات التجارية وهي مراس مختلفة الحجم منتشرة على كافة السواحل . لتسهيل المعاملات التجارية بين البربر وبين القرطاجنيين .

اتت مدنية قرطاجنة للبربر بصفة مسالمة لا بصفة محاربة . وكانت اول مدنية كما قلنا . فاخذوا عنها شيئا كثيرا . وادخلت بعض تغيير في لغتهم وعوائدهم واخلاقهم. وكلا العنصرين البربري والبونيقي من اصل واحد كما راينا . وكلا لغتيهم ساميتان .

شاهد البربر عظمة قرطاجنة . ورأى زعماؤهم كيفية تاسيس الملك . وكانوا من قبل لا يعرفون نظاما . فارتاوا تاسيس دولة بربرية مستقلة . وانبتوا ماسنيسا . وكان من امره ما علمت .

وانتهت مدة قرطاجنة . وزال ملكها . وتلاشى القرطاجنيون . وبقى العنصر البربري حيا موجودا كما كان من قبل . واستفاد من قرطاجنة فوائد جمّة بدون أن يضيع كيانه .

انتصبت روما في البلاد . وكانت فكرة الاستقلال قد اختمرت في قلوب البربر . استقلالا منظما ضمن دولة ضخمة . فصادفت روما في طريقها يوغورطة . ولم تستطع ان تستقر في البلاد الا بعد حروب فتاكة . وخراب ولم تؤثر روما وحكومتها في البلاد على البربر تاثيرا فعليا . لامرين اساسيين : الأول نفور البربر من الرومان الذين اتوا بلادهم بقوة السلاح وافتكوا ارضهم واعطوها للمستعمرين . الثاني : عدم سعي روما في استمالة البربر وقيامها بالاعمال العمرانية الجليلة لفائدة ابنائها فحسب . غير حاسبة للعنصر الاصلي حسابا .

فكان البربر لا يغادرون فرصة تسنح لهم الا اغتنموها للثورة في اوجه الغاصبين

ولئن امكن لتزريسير من البربر ان يدخلوا ضمن الحياة الرومانية ويتلتنوا . فان مجموع الامة البربرية . تلك الكتلة الهائلة بشمال افريقيا . بقيت بربرية بحتة محافظة على لغتها واخلاقها وعوائدها . تثور على روما ثورات عظيمة . الى ان جاءت الديانة المسيحية . فاعتنقها البربر . واعتزلوا فيها اعتزالا ظاهره الدين وباطنه السياسة وضعفت السلطة الرومانية . وتلاشت على ايدي الوندال . وبعد تلاشيها . وزوال آثارها . بقي العنصر البربري كما كان قبل انتصابها . ولم يكن لهاعليه ادنى تاثير . انما هو بلا ريب استفاد مما كان يراه بجانبه من عظمة الاعمال الرومانية ونظام الادارة الرومانية .

جاء الوندال . واعانهم البربر على الرومان . كما اعان ماسنيسا الرومان على قرطاجنة . وكان الاحتلال الوندالي عسكريا بحتا في اوله . ضعيفا لا تاثير له في آخره . ولقد اثر ذلك الاحتلال تاثيرا عظيما في بلاد البربر . لان البربر تمكنوا اثناءه من الاستقلال عن السلطة الاجنبية استقلالا يكاد يكون تاما في آخر الايام . وكانوا يشاهدون بسرور ما يقوم به المخربون الوندال من تحطيم معالم الرومان ومحق آثارهم . وعلينا ان نعترف بان البربر انفسهم اعانوا على ذلك التخريب والتحطيم . اما بداعي الجهل اوبداعي الانتقام .

الف البربر حياة الاستقلال القديمة التي حرمتهم اياها روما . وكان الراضخون منهم للاحتلال الوندالي حول قرطاجنة يجنحون للثورة ويتذمرون . فلما جاء البيزنطيون ـ الروم ـ وجدوا من هؤلاء البربر نصيرا لهم على الوندال . وهم الذين نصروا الوندال على الرومان . وانتصبت حكومة بيزنطة في البلاد .

وكانت كما رايت حكومة ظلم واعتساف . ارادت ان تنزل على البربر قهرها وجبروتها فثاروا . واعادوا الثورة. وقاموا بسلسلة متتابعة من الثورات وضعفت حكومة الروم بالبلاد . وكانت قد اتلفت بقايا الوندال . وهاجر جميع المستعمرين الرومانيين تقريبا . فلم يبق في البلاد الا العنصر البربري وبعض جموع رومية رومانية .

وهكذا كانت اعظم فائدةاستفادها البربر من الوندال والروم . هي تحطيم السلطة الرومانية تحطيماً تاماً . والجاء بقايا الرومان الى الهجرة وترك الديار لاهلها .

فلما ضعفت سلطة الروم . ووقفت طلائع العرب على تخوم البلاد كان البربر

في المغرب مستقلين استقلالا تاما . غير شاعرين بسلطة قرطاجنة البيزنطية الا في بعض الجهات . وما نسوا لغتهم . ولا عوائدهم . ولا اخلاقهم . حيث انهم كما رايت لم يندمجوا مع اي عنصر من العناصر التي قدمت للبلاد . بل قد ابتلعوا بقايا جاليات تلك العناصر . فلم يبق لها من اثر .

ولقد جاء ماسنيسا ويوغورطة في التاريخ قبل ابانهما . فلو ان ذينك الملكين العظيمين ولدا في هذه الاوقات . لامكنهما تاسيس الامبراطورية البربرية التي بذلا في سبيلها كل جهد . انما ذهبت مجهوداتهما ادراج الرياح وأحبطتها مطامع روما الاستعمارية .

استقل البربر في آخر ايام بيزنطة استقلالا تاما كما راينا . انما هم لم يجدوا زعيما يوحدهم . وقائدا يجمع شتاتهم ويؤلف منهم عصبة متينة . فكانوا في آخر ايام بيزنطة . كما كانوا في اول عهد قرطاجنة . يعيشون جموعا متفرقة . تخضع كل فرقة منها لرئيسها الخاص .

هكذا كانوا يعيشون عند قدوم العرب .

قبائل البربر عند قدوم العرب

كان البربر عموما في كامل الشمال الافريقي . ينقسمون الى ثلاثة اقسام اصلية : لوا . وفيها . سبعة فرق . وصنهاجة وفيها 14 فرقة . وزناتة وفيها 11 فرقة .

ولقد لخص بيرونيت هذه الفرق والقبائل وتوزيعها على البلاد الساكنة فيها حسبما استخلصه من اقوال سائر المؤرخين من عرب وغيرهم . واليك تقسيمه :

بطرابلس الغرب

اربعة قبائل من لوا : لواته . هوارة . اوريرة . نفوسة .
بعض فرق من زناتة . من قبيلة زمير .

بالمملكة التونسية

فرقة من لوا : نفزاوة . وفرقة من زنات . بني يفرن



قوس النصر سبيطلة

بقايا الهياكل بسبيطلة



بمقاطعة قسنطينة

فرقتان من لوا : نفزاوة (بقية القبيلة) وآوريبة . وفرقة من صنهاجة في الشمال : كتامة . وثلاث فرق من زنات وفي الجنوب : جراوة ويفرن . ومغراوة . وفرقتان من زنات بالصحراء : ورقلة . واسين

مقاطعة الجزائر

فرقتان من صنهاجة بالشمال : زواوة وصنهاجة . وفرقة من صنهاجة في الوسط : ادجيسة . وثلاثة فرق من زنات في الهضاب العليا : ومانو. ايلومي . وارمارت

مقاطعة وهران

فرقة كبيرة من صنهاجة في الشمال والوسط : بني فاتين . ومعهم في الشمال فرقة من قبيلة ازدادجا وفي الهضاب العليا فرقتان من زنات : ورنيد وارنيان .

المغرب الاقصى

كل قبائله من صنهاجة : على ساحل المتوسط قبيلة بني غمارة . وعلى ساحل المحيط بالشمال برغواطة . وفي السوس الأوسط ورسطيف . وفي الجبال الوسطى ازناقة وبعض بني فاتين : المطرارة . وفي جبال الاطلس الكبرى حسكورة . وبين الاطلس والبحر ووادي السبوع ووادي سوس تقطن قبيلة مصمودة . وبين السوس والدرعة توجد قبيلتا قزولا ولمطة .

الصحراء الوسطى

وما بين وادي الدرعة وصحراء الجزائر شمالا . وبين نهر النيجر جنوبا تقطن قبيلة : الصنهاجيين الملثمين .

تلك كانت حالة البلاد المغربية . من حيث ادارتها ومن حيث سكانها عندما وفدت نحوها فرسان العرب الفاتحين .

ثورة غريغوار

وهو البطريق المسمى من قبل الأمبراطور واليا على بلاد المغرب ومؤرخو العرب يعرفون اسمه فيدعونه «جرجير» .

كان معه في المغرب قائد عسكري يدعى هرقل . فاعلن الثورة عام 608 ضد الوالي . واستقل في قسم من البلاد . ولما مات خلفه ابنه المسمى هرقل ايضا . فسافر الى بيزنطة بحرا . بينما كان ابن غريغوار قد سافر اليها برا . على طريق مصر والشام . لكي يتنازعا هنالك النفوذ .

فوصل هرقل الى العاصمة الرومية قبل ابن غريغوار . فاخضع الثوار هنالك . واستولى سلطانا مطلقا . وبقي غريغوار واليا «مطلقا» على بلاد المغرب حتى مات . فخلفه ابنه غريغوار الذي سار الى بيزنطة فسبقه اليها خصمه . ولما كان بينه وبين الامبراطور من العداوة . ولما شاهده من ضعف الامبراطورية وتلاشي بلادها . وخروج مصر من سلطتها . اعلن انفصاله عن بيزنطة . ونادى باستقلاله .

ثم اسس عاصمة ملكة الواهي بمدينة سبيطلة . وشيد فيها ما يناسب عظمة الملك الذي حلم به .

فارسلت بيزنطة واليا آخر انتصب بقرطاجنة . واصبحت في بلاد المغرب دويلة رومية بربرية مستقلة . عليها الملك غريغوار .

حرب العرب والروم بافريقيا

بينما كانت حكومة بيزنطة في قلق واضطراب . وادارتها بالمغرب كما رايت من سوء التصرف والضعف والاستبداد . كانت دولة العرب . قد ظهرت للعالم فجأة ساطعة الانوار . وقد اعلى شانها خلفاء الرسول . فوطد ابوبكر اركانها على اسس متينة . وارسل خالد ابن الوليد وابا عبيدة ابن الجراح يفتحان بلاد الشام والعراق . وارمينيا . ورفع عمر ابن الخطاب لواءها على ربوع بلاد مصر وبلاد العجم . وهي الآن تحت امرة عثمان بن عفان مستمرة على التقدم السريع والانتشار الهائل .

الوقائع الأولى

تقدمت طلائع العرب نحو بلاد المغرب . وعلى راسها عبد الله بن سعد احد كتاب الوحي السالفين (1) بعد ان اتمت في بلاد مصر تجهيزها وتزودت لتلك الحملة الهائلة .

قدم العرب اول مرة بدون صلابتهم المعروفة في الحرب . فنصبوا الحصار على طرابلس وعلىقابس عام 667 . ثم اضطروا لفك ذلك الحصار.

ولقد بلغ البطريق غريغوار ذلك النبا وهالته مهاجمة العرب للبلاد . فجمع جموع الروم وضم اليه فرقا من البربر الخاضعين وسارلمقابلة الطلائع الفاتحة وجملة من معه على قول البعض تبلغ المائة والعشرين الفا .

ولقدكانت قرطاجنة في هاتيك الاثناء زاهية زاهرة . رغم الفوضى والاضطراب السائدين حولها .

سارجرجير بجموعه تجاه العرب . وقد ظن ان قوته الهائلة تكفيه لمحق الجند العربي الذي ماكان يزيد عن العشرين الفا ـ سدس الجند الرومي ـ .

تقابل الجمعان قرب يعقوبة ودامت المعركة عدة ايام متوالية وعادت الى العرب اثناء المعركة شدة مراسهم فاظهروا بسالتهم المعروفة وكان جرجير في وسط الجيش الرومي يحرض قومه على القتال والتاج على راسه . فقال ابن سعد قائد العرب لقومه : من قتل جرجير زوجته ابنته وكان عبد الله ابن الزبير حاضر الجيش وكان من اكبر الشجعان وهو ابن عمة الرسول واشتدت المعركة وهجم ابن الزبير على فرقة الروم فقتل البطريق جرجير . وباء الروم بالانهزام . وفتحت اذ ذاك مدن طرابلس واواسط المملكة التونسية ابوابها للعرب الفاتحين وانضم اليهم بعض رجال البربر وقبائلهم .

(1) يقول المؤرخون ابن عبد الله ابن سعد كان يخون النبيء في كتابه الوحي . ويبدل لكنه اعترف من بعد بذنبه فعفى عنه . انما بقي اثر ذلكعالقا في نفوس العرب .

اما ابن الزبير فقد ابى ان ياخذ لنفسه ابنة جرجير . لكي لا يقول قائل انه انما قتل البطريق الرومي طمعا في ابنته . ثم سار الى المدينة بطلب من عثمان بن عفان ليصعد على منبر الرسول بنفسه ويقص على الناس نبا ذلك الانتصار.

سبيطلة

كانت هذه المدينة حصينة . فاوصدت في وجه العرب ابوابها . وتحصن الروم بها تحصنا شديدا وجمعوا فيها ما قدروا على رفعه من البلاد الاخرى .

حاصرها العرب مدة . ثم استولوا عنوة عليها . فكان لهم بذلك انتصار عظيم واستولوا على ما بها من ثروة ونفائس ولقد نال الفارس من فرسان العرب أثناء القسمة ثلاثة آلاف قطعة ذهبية . ونال الراجل الفا .

بلغ الانزعاج في المدن الرومية حده اثر هذه النكبة وارسل العرب طلائعهم ترتاد في طريق قرطاجنة وخشى الروم سوء العقبى فخابروهم في الصلح واشترط عبد الله عليهم ان يدفعوا له مليونين وخمسمائة الف دينار ذهبا وهو مقدار جسيم . فرضوا ودفعوا وبر عبد الله بوعدة فغادر البلاد وقفل راجعا لمصر.

ولقد ارتكب عبد الله غلطة حربية وسياسية بهذا الصلح :

اما الحربية فلانه كان يمكنه اثر نصره العظيم على جرجير واثر احتلاله لسبيطلة ان يبادر باحتلال قرطاجنة وما كان ذلك عليه بالامر العسير . وكان يمكن ان ترد اليه النجدات مسرعة من مصر بينما هو مستمر على اعماله .

واما السياسية فذلك انه ترك لاعداء العرب مجالا فسيحا ليدعوا ان لا قصد للعرب بهذه الاعمال الا النهب والسلب وجمع المال فلما غنموا ما في سبيطلة وتحصلوا من الروم على مليونين وخمسمائة الف دينار . رجعوا على اعقابهم ولقد قال سيديو المؤرخ العظيم في كتابه : ولو كان خالد ابن الوليد او عمر بن العاص او الزبير نفسه في موضع عبد الله ابن سعد . لما فعلوا هكذا .

التاثير في بيزنطة

بلغ بيزنطة نبا النكبة الافريقية الحربية . وبلغها خبر الصلح الذي انعقد وثمن

ذلك الصلح فازعجها الامر وهالها واستعظمت المقدار الذي دفع للعرب واعتقدت ان نوابها ببلاد المغرب قد خانوها وكانوا يدفعون لها سنويا مقدارا معينا من خراج البلاد فارسلت الى الحاكم العام تطلب منه ان يزيد على ذلك الخراج مقدارا كبيرا .

ثم ان قسطنطين الثاني ارسل الى الوالي بقرطاجنة يطلب اليه أن يدفع له مقدارا يضاهي المقدار الذي دفعته البلاد الى العرب .

وما كانت بيزنطة تعتبر البلاد الا بقرة حلوبا تستدر خيراتها وما دار بخلدها ان العرب يمكن ان يعيدوا الكرة على البلاد فلم تقرا حسابها لذلك . واشتد النواب في طلب المال فنهبوا البربر نهبا غلطة وبالها ....

اما الوالي الرومي . فقد ساءته واغضبته مطالب الامبراطور وفقد كل امل فتولاه الصغار وانخذل وخان . وسافر الى الشام فقابل معاوية ابن ابي سفيان وحرضه على فتح افريقيا مبينا له ضعف الروم ، ووهنهم مطنبا القول في رفاهية البلاد وخصبها .

الحملة الثانية

تلقى والي مصر معاوية بن حديج اذنا من لدن الخليفة بالسير الى افريقيا فسار نحوها سنة 665 وجرت بينه وبين الجند الرومي مقاتلات واستولى على عدة مدن اهمها جلولاء الغنية . ولقد اقتسم الجند اسلابها فنال الجندي منهم ثلاثمائة قطعة ذهبية . ولم يتقدم الجند العربي في اواسط المملكة بل اكتفى بفتح السواحل الى القرن

وسمى الخليفة واليا على افريقيا عقبة ابن نافع الفهري ذلك الرجل العظيم وكانت مهمته فتح بلاد افريقيا ونشر الاسلام دينا وسياسة على ربوعها وكان عقبة رجلا كاملا جامعا لكل وصف يجب ان يكون لدى القائد والزعيم .

فبفضل ما اوتيه من الصلابة والمهارة تمكن من اعادة الكرة على البلاد ففتح جنوبها واواسطها . ورأى ان يدعم الفتح العربي على اساس متين ويبين للملا ان العرب اتوا على نية الاقامة الابدية . فخطط بنفسه اسس مدينة هائلة . هي مدينة القيروان . ولم يمض امد يسير حتى كانت المدينة قائمة البناء ولا يخفى عليك ما يحدثه ذلك من التاثير الادبي على البلاد . واخذ البربر يتجمعون حول المدينة الجديدة وتلك من اعظم غايات عقبة العظيم .

سياسة خرقاء

واني لاستصدر من التاريخ هنا حكما صارما على الخليفة معاوية وعلى رجاله وعلى والي مصر. وعلى العقلية الفاسدة التي كانت لجميعهم يومئذ.

راى الخليفة لمجرد شهوة اورغبة في مكافأة ان يمنح ولاية افريقيا لوالي مصر مسلمة بن مخلد فولاه وعزل عقبه وهويذيب فكره في تنظيم البلاد.

ارسل الوالي الجديد احد عبيده الذين وصلوا الى درجة القيادة : دينار لينوبه بافريقيا. وليتم فتحها.

جاء دينار. وكان اول عمل قام به وياللاسف هو القبض على عقبة وحبسه واهانته ثم بلغ به وسيده الخور وفساد الراي ان حطموا القيروان. لان عقبة هو الذي ابتناها

هذا ما وقع على مراى ومسمع من البربر ومن الروم. فتصور كيف كان مفعول ذلك .... ولم يفعل دينار وسيده هذه الشناعة الا لحزازات شخصية ضد عقبة

ان عملا كهذا لا يجلب للبربر ازدراء العرب فقط. بل يربي في نفوسهم فكرة عدم الثقة بهؤلاء الفاتحين الجدد وعدم الركون اليهم وعدم اعتبارهم رجال نظام واصلاح. وما كاد عقبة يغادر البلاد التي اخضعها بحكمته حتى هب البربر للثورة جموعا. وتولى زعامتهم كسيلة من قبيلة آوربية. لكن دينار قد تتبعهم حتى جهة تلمسان الحالية واسر كسيلة فاعتنق الاسلام وبقي ملازما للوالي.

مات معاوية وتولى ابنه اليزيد. فاعاد تسمية عقبة على المغرب. وسيره اليها فوصل الى القيروان والقى دينار مصفدا في السجن واعاد تشييد القيروان ثم جال في بلاد المغرب حتى وصل الى البحر المحيط فادخل جواده في الماء وصاح يا رب محمد ! لولا هذا البحر لانطلقت فاتحا حتى لا ابقى في الأرض من يشرك بك ! ثم نزل الى بلاد السوس وجبال الاطلس. واخضع كل من قاومه.

اهانة حر

كان عقبة يهين كسيلة لانه اخلص لدينار واحبه وكسيلة يحتمل ذلك احتمال الاسر....

وكانوا يوما مجتمعين ومعهم وجوه العرب والبربر فقال عقبة للرئيس البربري قم اذبح لنا خروفا . يقصد بذلك اهانته وجرحه . فقام البربري والغيظ ياكل قلبه وذبح الخروف امامهم واخذ يلطخ يده بالدم ويمسح بها لحيته وينظر الى عقبة فقال له ويحك ما تصنع ؟ قال لا شيء انما دم الخروف يقوي شعر اللحية .

ومسح الدم على اللحية توعد في عرف البربر .

وبعد مدة فر كسيلة من اسر العرب وسترى ما يكون لهاته الغلطة الفادحة من الاثر العظيم .

وماكان البربر ينتظرون الا زعيما فاعطاهم عقبة ذلك الزعيم .

كسيلة

مكث عقبة مستمرا على تجواله . والنصر يخدمه اينما حل . وانطلق الى جهة الجنوب غازيا ففتح وفاز . ثم قفل الى القيروان راجعا . وقد امن كل شر . فتاخر عن جنده في بعض قواده وخواصه . واتسعت مسافة الخلف بينه وبين جنده . واذا به يشاهد جموع البربر تحت امرة كسيلة تهاجمه من كل ناحية . واذا به محاط من جميع جهاته بتلك الجموع الكثيفة . فادرك هو وادرك من معه ان الساعة الاخيرة قد دنت . فصلوا وابتهلوا الى الله . ثم امتشقوا سيوفهم وهاجموا صفوف البربر . واستشهدوا جميعا بعد حين . واستشهد معهم دينار الذي ابى الفرار الى الاعداء. ومحل هذه الواقعة عند سفح جبل آراس . بين قرية تهودا . ومدينة سيدي عقبة .

وفي هذه المدينة مسجد بديع مقام على ضريح يزعمون انه قبر الفاتح العربي . لكن لا يوجد اي دليل على ان عقبة ينام هنالك نومه الاخير . فمن الذي دفنه ياترى ؟ فالعرب الذين معهم ماتوا جميعا . والبربر الذين قاتلهم وقتلوه لا يمكن ان يفكروا في بناء قبور لقتلاهم . فالذي يمكن لنا ان نجزم به هو ان ذلك الضريح قد اقامه العرب بعد رجوعهم بزمن في الموضع الذي يظنون ان عقبة قد وقع فيه شهيدا . وكتبوا بالضريح : هذا قبر عقبة ابن نافع رحمه الله بالخط الكوفي .

انزعج العرب من هذا النبأ . واشتد مراس البربر وقويت آمالهم . فاقتفوا اثر .

الجند العربي . وحاصروه في القيروان . وما استطاعت القيروان ثباتا على الحصار فاستسلمت . وخرجت بقايا الجند العربي من افريقيا وخيمت عند برقة سنة 681 .

وهكذا نجت قرطاجنة الرومية بفضل ثورة البربر . وهكذا تاسس ملك كسيلة البربري وانتصب ملكا في مدينة القيروان انما كان لهذه الحملة تاثيرا ادبيا عظيما على نفوس الشعوب البربرية المختلفة ببلاد المغرب . فقد عرفوا العرب وطباعهم . وعرفوا دينهم . ورأوا انهم ليسوا في شيء من صلابة الروم او عظمة الجبابرة السالفين .

وعرف العرب كذلك طباع البربر واحوالهم واطلعوا على البلاد .

مملكة كسيلة

كانت الحروب الداخلية والفتن تمزق جسم الدولة العربية . فما استطاع العرب ان يبادروا بالرجوع الى بلاد افريقيا . فبقيت السلطة الرومية منتصبة بقرطاجنة. وبقي البربر مستقلين حول كسيلة .

ولقد استمر هذا الملك الجليل حاكما بالقيروان ناصبا ميزان العدل مدة خمسة اعوام . قضتها مملكة القيروان البربرية في هدووامن .

لكن زهير بن قيس قائد . بقايا العرب في برقة طلب من والي مصر المدد فامده. واعاد الكرة على البلاد .

فاستعد كسيلة للقائه . ورأى أن القيروان لا تصلح للدفاع فاخلاها . وذهب بجموعه الى الشمال . فتحصن عند وادي مجردة شرقي قرية سبيبة . وهنالك جرت الحرب شديدة بين الفريقين . وانضم جند الروم وكل المسيحيين الى كسيلة . فقاتل قتال الابطال . ومات في المعركة والسيف في يده . فتفرقت جموعه وآوى اكثرها الى جبال اوراس .

ولقد كانت عملية زهير هذه ذات اهمية عظيمة بالنسبة للفتح العربي . لانه لم يترك المملكة البربرية تتمركز وتتوطد اركانها . فيصعب بعدئذ على الفاتحين تقويضها .

فلما اتم تحطيم هذه المممملكة الفتية راى انه لا يستطيع ثباتا في افريقيا .

فغادرها الى برقة . ولقيه بعض جموع الروم حوالي طرابلس فقاتلهم . وقتل هو وجميع رجاله .

اما البربر فقد ولوا زعامتهم بعد كسيلة امراة عصامية . كانت على ما يقال ذات صلات مع كسيلة . العرب وسائر المؤرخين يسمونها : الكاهنة . ويقال ان اسمها الحقيقي هو دحية بنت ثابت وانها كانت اسرائيلية الدين . واخذوا حوالي جبل اوراس يستعدون للمقاومة .

حسان بن النعمان

ولما صفا الجو في بلاد الشام للخليفة عبد الملك . ولم يبق له منازع في الخلافة بعد تغلبه وتغلب من قبله على الحسن وعلى الحسين وعلى ابن الزبير ارسل امره الى حسان ابن النعمان بتجهيز حملة جديدة . وفتح بلاد المغرب فتحا تاما .

صدع حسان بالامر . وجمع جندا عربيا عتيدا . وقدم الى البلاد فما وجد في اول الامر شديد مقاومة . ورأى من الحكمة والسداد . ان يبادر بازالة ملك الروم . وذلك بقهر قرطاجنة وازالتها . فسار اليها ونصب عليها الحصار . وكانت قرطاجنة كثيرة الحصون منيعة . وضيق عليها . ثم هاجمها بقوة وشدة مراس . فدك اساسها واحتلها عنوة وقهرا . وما فاز من بها من الروم الا بفضل السفن التي كانت بمرساها . واستلبها الجند فنال بها مغانم كثيرة .

ولم يتاخر حسان عن تهديم قرطاجنة تهديما تاما . فلم يبق منها شيئا . سوى اكداس الخراب . وان هذا التحطيم . وان كان جناية على التاريخ وعلى الفن . فقد كان حسان يقصد به ولا ريب ثلاثة امور :

أولا ـ ازالة آخر اثر من آثار السلطة الرومية والمسيحية في البلاد حتى لا يبقى منها اي رسم .

ثانيا ـ ليأمن جانب رجوع الروم الى قرطاجنة ولو انها بقيت قائمة لربما اعادوا الحملة لاسترجاعها كما وقع فعلا .

ثالثا ـ لكيلا يبقى في البلاد الا عاصمة واحدة هي القيروان . ولكي يجمع

حول هذه العاصمة الجديدة ذات المركز المنيع كل قوات البلاد . ويجمع سكان البلاد حول عاصمة عربية جديدة .

وهنالك بعض من بقايا الروم هاجروا الى بنزرت وتحصنوا بها . ينتظرون نجدة من بيزنطة . وجاءتهم اخيرا هذه النجدة من الروم . فهاجموا الجند العربي . ووصلوا الى قرطاجنة . فلم يجدوا بها غير الخرائب . وبعد وقوف قليل على اطلالها . عادوا من حيث اتوا . ثم امتطوا الاسطول . وغادروا البلاد مغادرة نهائية . وهكذا انتهت السلطة الرومية ابديا من هذه الديار سنة 604 . وهكذا تحطمت قرطاجنة تحطيمها الاخير .

الكاهنة

لم يبق امام العرب بعد هذا النصر الهائل الا قهر المقاومة البربرية . وكان البربر قد جمعوا امرهم كما رايت حول الكاهنة .

جمع حسان قواته من جديد . واستعد لخوض ملحمة هائلة . وكانت جموع الكاهنة قد اغارت على قسم كبير من البلاد فاحتلته . وهاجمت حسان فهزمته واسرت عددا من رجاله . فعاملتهم بلطف ولين . واطلقت سراحهم ما عدى واحدا هو خالد بن يزيد . ابقته عندها لجماله وكان آية من آيات الحسن . وقالت للملا حولها انها اتخذته ابنا لها وارضعته ثديها .

اما خالد فقد كان عينا عليها يدل العرب على كل ما يفيدهم . وتحصنت تحصنا منيعا . فهاجمها حسان بجنوده . وكانت تتحاشى ان تقابله في معركة حاسمة. شان البربر في كل حرب . ولقد ارادت ان تجعل الخراب حائلا بينه وبينها . فاصدرت امرها باحراق المزارع وتقطيع الشجر وتحطيم القرى حتى لا يبقى للعرب مطمع في البلاد . وحتى يهلكوا جوعا وظمأ ان غامروا بالدخول اليها .

اما البربر فلم يقابلوا ذلك التخريب بعين الرضا . ونقموا على الكاهنة لتحطيم ثرواتهم واتلاف خيراتهم . فتخلى اغلبهم عن نصرتها . وخذلوها .

ولم يقف حسان عند ذلك . واستمر على الحرب . وكانت حربا صعبة شديدة هائلة وتتبع الكاهنة حتى اضطرها الى قبول المعركة . واستعلت نيران الحرب ودارت

الدائرة عليها . فجرحت جرحا مميتا اثناء المعركة . وقابلت بعدئذ القائد حسان واودعته ولديها واوصتهما بالاسلام وخدمته . وماتت وخضع البربر بعد ذلك للفاتحين. فتم لهم الامر بصفة نهائية في بلاد المغرب واسلم ولدا الكاهنة . فاقامهما حسان واليين من قبله على بعض البلاد . وهكذا استقرت اقدام العرب وانتشر لواء الاسلام بهذه البلاد الى الابد . ودخل البربر في دين الله افواجا .

*
* *

الخــاتمــة

العرب والبربر

في سنة 710 . بعد مدة لا تبلغ القرن من انتصاب العرب النهائي بهذه الديار . وقف طارق بن زياد البربري على جزيرة الاندلس . فاتحا باسم الاسلام . وتحت امرته جيش يؤلفه 12000 امن البربر و 8000 من العرب . فقاتل الغوط وانتصر . وفتح بلاد الاندلس للاسلام .

فلنقف هنا قليلا . ولننظر ما هو هذا الحادث الغريب . والانقلاب المدهش الذي جعل البربر يندمجون مثل هذا الاندماج في الاسلام . وقد عهدنا عند اختراقنا لتاريخهم القديم . يقاومون كل احتلال مادي او ادبي . ويغارون على استقلالهم غيرة مستميت . ولا يرضون باي صفة من الصفات ان يندمجوا في العنصر الغالب ولواندماجا اخلاقيا فحسب .

فكيف امكن للعرب ان يفعلوا في اقل من مائة عام ما لم يقدرعليه الرومانيون في نحوالسبعةقرون ؟

واذا امعنا النظر جيدا في اسباب ذلك . وجدنا ان الالتحام الذي وقع بين العرب والبربر . وخصوصا سرعة اعتناق البربر للاسلام وتعصبهم له . انما وقع ذلك لخمسة اسباب اصلية :

1 ـ ان كلا العنصرين العربي والبربري من اصل سامي واحد . ولهما من اجل ذلك عقلية واحدة .

2 ـ ان العرب اتوا الى هذه البلاد بمدنية ادبية . لا مدنية مادية . اي ان مدنية العرب التي قدموا بها من بلادهم كانت هي المدنية الاخلاقية الاسلامية لا مدنية المراسح والقصور والابنية الشاهقة الرومانية . البعيدة كل البعد عن الاخلاق البربرية البدوية .

3 ـ استوطن العرب في البلاد المغربية . على صفة تخالف كل الصفات السالفة . فبينما كان القرطاجنيون والرومان والروم وحتى الوندال . لا يقطنون الا مدنهم الخاصة . ولا يختلطون مع البربر الا نادرا . ترى العرب ينصبون خيامهم مع خيام البربر . ويعيشون معهم في سهولهم وفي بعض جبالهم . وهم متحدون في طرق العيش البسيطة الساذجة . ومتحدون كذلك في صفات البداوة .

4 ـ وهذه الاسباب الثلاثة المتقدمة جعلت البربر يميلون للدين الاسلامي وما فيه من مكارم اخلاق ومباد اجتماعية واشتراكية عالية . اذ اتتهم بمثل تلك الصفة البسيطة الطبيعية . وبينما كان الرومانيون لا يريدون من البلاد الا استثمارها . فعملوا على قهر البربري واستعباده . غير مكترثين به ولا مبالين . كان قصد العرب الاكبر من احتلال البلاد هو ادخالها في الاسلام . فارسلوا المبشرين بالدين الى كل القبائل البربرية . واسكنوهم عندهم يعلمونهم القرآن والعربية والدين .

5 ـ اثر ذلك الاعتناء في البربر تاثيرا جسيما . ورأوا انهم عند اخذهم لدين العرب اصبحوا واياهم سواسية لاسيد ولا مسود . واصبح منهم القواد والامراء والولاة. فاخذوا الدين . واخذوا نصيبا واسعا من اللغة . على اعتقاد أن ذلك لا يؤثر على حياتهم الاستقلالية . وكان الامر كذلك . فان حياتهم الاستقلالية بعد ان اخذوا الدين والعربية اصبحت منظمة محكمة . خصوصا وان العرب قد تركوا لهم ارضهم واعترفوا لهم بملكيتها ولم يعتدوا عليها وتمكنوا بفضل كل ذلك مع العرب مما لم يتمكن منه يوغرطة وماسينسا في العصر القديم .

من اجل ذلك اصبح العرب والبربر بافريقيا امة واحدة . بدون ان يغير

البربر كثيرا من عوائدهم القديمة . وبدون ان يتخذ العرب عوائد البربر فكانت تجمعهم وحدة الدين ووحدة الاخلاق ووحدة المصلحة .

قال الاستاذ الكبير سيديو : ورأينا عددا كبيرا من العرب يغادرون اذاك بلادهم قاصدين افريقيا لاجل الكسب . وهنالك يبثون القانون الديني الاسلامي . وكان البربر مثل العرب يحبون الاستقلال . وكانوا معا رعاة متجولين . ولكلا القومين اميال واحدة وعواطف واحدة . شركاء في حب الشرف والفخر . وتعشق الحرية . واحترام الضيوف واكرامهم . وان هذا الاشتراك في العواطف والاخلاق قد كسر الحواجز التي لم يستطع اختراقها لا الرومان ولا الوندال ولا الروم . واصبح البربر اشد اعوان الجند الاسلامي . »

ويقول م . بيرونيت وقوله حق وصدق : «عاش العرب والبربر جنبا الى جنب قرونا عديدة . وشاركوا بصفة عامة في مدنية واحدة . والمدنية التي ازدهرت بهذه البلاد كانت مدنية قوم شمال افريقيا . لا مدنية خاصة باحد العنصرين . ولقد كان لهؤلاء الافريقيين الشماليين شعراؤهم ومؤرخوهم وفلاسفتهم ورجال القانون والتشريع . وكان لهم فنهم الخاص الذي يمكن ان يكرهه بعض الناس . لكن لا يمكن لاحد ان ينكر وجوده ».

وهكذا كانت نتيجة الفتح الاسلامي . ان تالفت امة شمال افريقيا وكونت مدنيتها التامة على انقاض المدنيات المنقرضة . والف الله بين العرب والبربر فاصبحوا بنعمته اخوانا .

فهرس عام للمواضيع

(الكتاب الأول)

(دولة قرطاجنة)

(الكتاب الثاني)

طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
الرغاية ــ 1986